

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

من هدى

القرآن الكريم

تفسير بلاغي لسورة «المؤمنون»

تأليف
الدكتور

بسيوني محمد الفلاح فيروز

للمدرس بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

من هدى

القرآن الكريم

تفسير بلاغي لسورة «المؤمنون»

للدكتور

بسيوني محمد الفلاح فيروز

المدرس بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين . نبينا محمد وعلى آله وصحابه ومن تمسك بهديه ونهج نهجه وسلك طريقه ومضى على سنته إلى يوم الدين ..

أما بعد :

فالقرآن الكريم هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم ونوره المبين « قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ آفِهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ » . . « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا » . . هو الذي لا تزيع به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد . . إنه روح من أمر الله ، به تحيا القلوب « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . » . وكثيرا ما أوصانا حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم بحفظ القرآن وتأمله وتفقه أساليبه وتدبر أحكامه يقول صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ويقول : « اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه » ويقول : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » ، ويقول : « تعاهدوا

هذا القرآن فو الذى نفس محمد بيده لهو أشد ثقلاً من الإبل فى عقلها ، ويقول :
« وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ،
إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفهم الملائكة ، وذكرهم الله
فمن عنده » ..

وهذا تفسير بلاغى لسورة من سور القرآن الكريم وهى سورة
« المؤمنون » ، عرضنا فيها لشرح ألفاظ السورة الكريمة وإبراز معانيها اللغوية
والشرعية ، كما عرضنا لأوجه الإعجاب المختلفة والأسرار والمزايا البلاغية التى
تمن وراء العبارات والتراكيب ، ولم ننس أن نعرض لتجلية وإيضاح المعانى
العامة للآيات الكريمة ، فالله عز وجل نسأل أن ينتفع بهذه الدراسة طلبة العلم
وأن يزدادوا بها تأملاً وتدبراً لآى الذكر الحكيم ، كما نسأله وهو خير مسئول
أن يفقهنا فى الدين ، ويعلمنا الأول ، ويرزقنا فهماً صحيحاً لكتابه الكريم
وتأملاً واهياً دقيقاً لآياته الحكيمة ، ونعوذ به تعالى من الزلل حول كتابه وأن
يجرى القلم بلفظ لا يلىق أو بذكر معنى لم يردده تبارك وتعالى ولم يرضه .. اللهم
ارزقنا صواب الرأى والقول الرشيد وحسن التعبير ، إنك سميع مجيب وأنت
نعم المولى ونعم النصير ، واجزنا يارب خير الجزاء ، وهب لنا من أمرنا رشداً ،
واهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم
ولا الضالين ، وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

د/ بسيونى عبد الفتاح فيود

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سورة « المؤمنون » من السور التي نزلت بمكة بلا خلاف ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، واستثنى منها كما في الإتيان من قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ » إلى وقوله عز وجل : « حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ » وقد استشكل الحكم على ما جاء فيها عن الزكاة : لأن الزكاة فرضت بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة ، وأجيب بأن أصل الزكاة كان واجبا بمكة قال تعالى في سورة الأنعام ومي مكية : « وَأَنْتُمْ حَقُّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »^(١) ثم فرضت بالمدينة وينت أنصبتها..

ومما جاء في بيان فضل هذه السورة الكريمة ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « كان إذا نزل على رسول الله - صل الله عليه وسلم - الوحي نسمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما فـكـثـرنا ساعة فسرى عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا ، ثم قال : لقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ صلى الله عليه وسلم :

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » حتى ختم المشر « . أما عن مناسبتها لما قبلها فترجع إلى أنه تبارك وتعالى خاطب المؤمنين في آخر سورة الحج بقوله عز وجل :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَكْلِمُوا الصَّبْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » وقوله تبارك وتعالى : « فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ الْفَصِيرُ » ، فناسب ذلك

أن يقلوه ما يحقق فلاحهم وفوزهم فقال عز من قائل : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ الْفَوَاحِشِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ إِفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ كَبِيرٌ مُلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . »

اللغة والإعراب : قد : حرف يدل على ثبوت أمر متوقع وتحققه ، فهي نقيضة « لما » ، إذ هي تثبت المتوقع وتحققه ، ولما تنفيه ، تقول : قد نجح المجد ، وتقول : لما ينجح ، فثبت وتحقق بقدر نجاحه المتوقع ، وتنفيه بلما ، والأمر المتوقع في الآية الكريمة هو الفلاح الذي دخلت قد على فعله ، ولاشك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم ، فخطبوا بما دل على ثبات وتحقيق ما توقعوه .. وتردد في اللغة على خمسة معان :

- ١ - دخولها على الأمر المتوقع فتفيد ثبوته وتحققه ، كإفي الآية وكقولك : قد يعود الغائب اليوم ، قد ينجح المجتهد ، وقول المؤذن : قد قامت الصلاة ..
- ٢ - تقريب الماضي من الحال ، تقول : قام زيد فيحتمل بالماضي القريب والماضي البعيد ، فإن قلت : قد قام ، اختص بالقريب ..
- ٣ - التقليل وهو نوعان : تقليل وقوع الفعل نحو : قد يصدق الكذوب وقد يجود البخیل ، وتقليل متعلقه كقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ (١) وقوله عز وجل : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ .. ﴾ (٢) أي : ما أنتم

عليه ، وما يصنعه المعوقون أقل معلوماته سبحانه وتعالى ، ورأى البعض أنها في الأمثلة للتحقيق ، وهذا واضح في الآيتين ، أما في المثالين فالتقليل لم يستفد من قد ، بل من قولك : البخيل يـجود ، والكذوب يـصدق ، فإنه إن لم يحمل على أن صدور ذلك منهما قليل كان فاسدا ..

٤ - التـكثير .. كما في قول الهذلي :

قـد أترك القرن مصفرا أنامـله كأن أثوابه بـجت بفرصاد

فهو يفخر بأن ذلك يقع منه كثيرا ، والقرن بكسر القاف : الكفء والنظير في الشجاعة والحرب ، وبت بفرصاد أى : رميت بالحرة ، كناية عن شدة اصفراره ، الناجم عن خوفه من ملاقاته الشاعر ومنازلته ..

• - التحقيق كما في قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » (١) ، وقوله عز وجل : « قَدْ بَلَغَ مَا أُنْتُمْ عَلَيْهِ » (٢) وقد مضى أن بعضهم يحمله على التحقيق ، ولم يرتض معنى التقليل (٣) ..

ويجوز أن تكون جملة : « قد أفلح المؤمنون » جواب قسم محذوف والتقدير : والله لقد أفلح ، وقد ذكر الزجاج في قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » أنه جواب القسم المذكور قبله بتقدير اللام ..

أفلح : دخل في الفلاح كأبشر دخل في البشارة ، يقال أفلحه : أصاره إلى الفلاح ، وقرىء : « أفلح » بالبناء للمفعول ، و « أفلحوا » على لغة « أكلوني البراغيث » ، أو على الإيضاح بعد الإبهام ، و « أفلح » بحذف الواو والاجتزاء عنها بالضمه ، ومنه قول القائل :

فلو أن الأطباء كان حولى وكان مع الأطباء الأساة

(١) سورة الشمس الآية ٩ - ١٠ . (٢) سورة النور الآية ٦٤

(٣) ارجع إلى هذه المعاني فى معنى اللبيب ج ١ ص ١٧١ وما بعدها .

والفلح بفتح اللام والفلاح : الفوز والنجاة والبقاء في النعيم والخير ، قال الأزهري : وإنما قيل لأهل الجنة مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد ، وفلاح الدهر : بقاؤه .. قال الشاعر :

ولكن ليس في الدنيا فلاح

أى : بقاء ، ويطلق الفلاح على السحور لبقائه غنائه ، والفلح بالسكون : الشق والقطع ، يقال : فلح الشيء يفلحه فلحاً : شقه وقطعه ، قال الشاعر :

قد علمت خيلك أنى الصحصح إن الحديد بالحديد يفلح

وسمى الفلاح فلاحاً لأنه يفلح الأرض أى : يشقها ، والفلاحة : الحرثة ويقال : رجل أفلح وامرأة فلحاء من الفلح وهو تشقق في الشفة وضمخ واسترخاء ، وفي حديث كعب : المرأة إذا غاب عنها زوجها تفلحت وتتكبت الزينة ، أى : تشققت وتخشفت ، وفلح تفلحاً أى : مكر واستهزاء قال أعرابي :

« قد فلحوا به » أى : مكروا به ..

والمؤمن : المصدق ، بالإيمان : إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم : واعتقاده وتصديقه بالقلب ، فمن كان على هذه الصفة ، فهو مؤمن مسلم ، غير مرتاب ولا شك ، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه ، لا يدخله في ذلك ريب ، وقد اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم ، أن الإيمان معناه : التصديق قال تعالى . « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ نَمُؤِمِنُوا وَلاَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » (١)

قالوا : وهذا موضع يحتاج الناس إلى تفهمه ، وأين ينفصل المؤمن من المسلم وأين يستويان ، فالإسلام : إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه يحقن الدم فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك

الإيمان الذي يقال للموصوف به هو مؤمن مسلم، قال تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ نَمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »^(١) ، فالمؤمن هبطن التصديق مشل ما يظهر ، والمسلم التام الإسلام مظهر الطاعة مؤمن بها والمسلم الذي أظهر الإسلام تعودا غير مؤمن في الحقيقة ، إلا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين ، والمسلم الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر فلم يصدق فهو المنافق ... والمؤمن : من أسماء الله تعالى الذي وحد نفسه بقوله : « وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ »^(٢) ، وقال تعالى : « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَّا تُفْتَرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمُؤْمِنِ الْمُؤْمِنِينَ . . . »^(٣) ومعنى المؤمن : الذي آمن الخلق من ظلمه ، وقيل : الذي آمن أوليائه عذابه ، وقيل الذي يصدق عباده ما وعدهم ، فالفعل « آمن » يتعدى بالباء أو باللام أو بنفسه ، يتعدى بالباء إذا قصد التصديق بالله وبرسوله وبما أنزل ، التصديق الذي هو نقيض الكفر تقول : آمنت بالله وبرسوله وآمنت بالغيب وم : قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا »^(٤) ويتعدى باللام إذا قصد السماع والتسليم بما يقال . وتصديق قائله ، تقول : آمنت لك أى : سمعت وسلمت بما تقول وصدقته ، ومن ذلك قوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ »^(٥) ، وقوله عز وجل : « فَمَا آمَنَ لِنُوحَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ »^(٦) . وقوله جلا وعلا : « أَوْ مِمَّنْ لَكَ

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٣ .

(١) سورة الحجرات آدية ١٥ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٣٦ .

(٣) سورة الحشر الآية ٢٣ .

(٦) سورة يونس الآية ٨٣ .

(٥) سورة يوسف آدية ١٧ .

وَاتَّبَعَكَ الْأَرْضَ ذُلُونَ»^(١)، وقوله عز قائلًا : « قَالَ آمَنْتُكُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ »^(٢) ، وقد اجتمعت التمدى بالباء واللام في قوله تعالى : « وَبِقَوْلُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ .. »^(٣) ..

يقول الزمخشري : « فَإِنْ قُلْتَ لَمْ عُدَى فَعَلِ الْإِيمَانَ بِالْبَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّامِ ؟ ، قُلْتَ : لِأَنَّهُ قَصْدُ التَّصْدِيقِ بِاللَّهِ الَّذِي هُوَ نَقِيضُ الْكُفْرِ بِهِ فَعُدَى بِالْبَاءِ ، وَقَصْدُ السَّمَاعِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ يَسْلَمَ لَهُمْ مَا يَقُولُونَهُ وَيَصَدِّقَهُ لِكُونِهِمْ صَادِقِينَ عِنْدَهُ فَعُدَى بِاللَّامِ .. »^(٤) ويتعدى بنفسه إذا قصد تحقيق الأمان والأمان كقولك : آمن الله عباده ، أى : جعلهم فى أمان ، ومنه قول الشاعر :

وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرِ بِمَسْحِهَا رُكْبَانَ مَكَّةَ بَيْنَ الْغَيْلِ وَالسَّهْدِ

والمعنى : والله الذى آمن الطير الملتجئة للحجرم، والساكنة فيه، من الاصطياد والأخذ .. وقد يتعدى بعلى كما فى الحديث : « ما من نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، أى : آمنوا عند معاينة ما آتاهم من الآيات والمعجزات ... ولا يخفى عليك ما بين المعانى عندئذ من فروق دقيقة ، تأمل : آمنت بك .. آمنت لك .. آمنتك .. آمنت عليه ، وتدبر ما بين هذه التعبيرات من فروق ..

الصلاة : قال أهل اللغة فى الصلاة إنها من الصلويين وهما مكتنفا الذنب من الناقة وغيرها ، وأول موصل الفخذين من الإنسان ، فكأنهما فى الحقيقة مكتنفا العصص ، والصلاة فى اللغة معناها الدعاء ، وهى اسم يوضع موضع المصدر ، يقال : صلى صلاة ولا يقال صلى تلبية ، والصلاة فى الشرع : أقوال وأفعال

(٢) سورة الشعراء الآية ٤٩ .

(١) سورة الشعراء آية ١١١ .

(٤) الكشاف ج ٢ ص ١٩٩ .

(٣) سورة التوبة آية ٦١ .

تبتدأ بالتكبير وتختتم بالتسليم، وتطلق الصلاة على الركوع وعلى السجود والقيام والذكر والتسبيح والاستغفار وكلها إطلاقات مجازية، والصلاة من الله تعالى الرحمة وحسن الثناء والتكريم والتعظيم، ومن الملائكة دعاء واستغفار، ومن الطير والدواب والجبال والجمادات : التسبيح، وصلوات اليهود والنصارى يبعثهم وكنائسهم، ويقال : صلوات الظهر بفتح الظاء : ضربت صلاه، والصلاة : وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع، وقيل ما انحدر من الوركين .. وقد اختلف في إطلاق الصلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم، فقيل لا يصح لأنه خاص له ولا يقال لغيره، قال تعالى : « **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** »^(١)، وقيل - وهذا القول هو الراجح - إن الصلاة التي بمعنى التعظيم والتكريم، لا تقال لغيره، والتي بمعنى الدعاء والتبريك، تقال له ولغيره، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « **اللهم صل على آل أبي أوفى** »، أى ترحم عليهم وبرك لهم، وقال تعالى : « **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** »^(٢).
أى : ادع لهم واستغفر لهم، وقال عز قائلنا : « **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** »^(٣) أى : يرحمكم وملائكته يستغفرون لكم، فصلاة الله رحمة ورأفة، وصلاة الملائكة استغفار ودعاء ..

والخشوع فى الصلاة : خشية القلب وإلحاد البصر أى : إلزامه ووضع السجود، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه كان يصلى رافعا بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية رمى بصره نحو مسجده، وكان الرجل من العلماء إذا قام فى الصلاة

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٦ . (٢) سورة التوبة الآية ١٠٣ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٣ .

هاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء، أو يحدث نفسه بشأن من شأن الدنيا، ومن الخشوع أن يتأدب فيتوقى كف الثوب، والعث بجسده وثيابه، والاتفات والتطى والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقة والتشبيك والاختصار وتقايب الحصى، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أبصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلبه خشعت جوارحه»، ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصى وهو يقول: اللهم زوجني الحور العين، فقال: بتس الخاطب أنت، تخطب وأنت تعبت؟ .. ويقال: خشع الرجل يخشع خشوعا واختشع وتخشع: رمى ببصره نحو الأرض وغضه وخفض صوته وانكسر بصره .. وقالوا: الخشوع قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن وهو الإقرار بالاستخذاء، والخشوع في البدن والصوت والبصر .. وخشوع الصوت والجوارح: سكونها قال تعالى: «وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِرَبِّنَا فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا نَهْمًا»^(١) أى: سكنت

واللغو: مالا يعينك من قول أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة لغائه وإطراحه، يعنى أن بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل، ويقال: لغا في القول يلغو ويلغى لغوا، ولغى بالكسر يلغى لغا وملغاة: أخطأ وقال باطلا، ويطلق اللغو على الإثم قال تعالى: «لَا يُوَٰخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ»^(٢) أى: بالإثم في الحلف إذا كفرتم، وقيل هو مالا يعتد به لقلته، أو لخروجه على غير جهة الاعتماد، ويطلق على الباطل، وعلى الفاحشة، يقال: كلمة لا غية أى: فاحشة، وفي التنزيل: «لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ»^(٣) هو على النسب أى: كلمة ذات لغو وهى الكلمة النتيجة أو الفاحشة، وقال تعالى: «وَإِذَا مَرَّ بِاللَّغْوِ مَرًّا كَرَامًا»^(٤)، أى: بالباطل .. وقالوا:

(٢) سورة المائدة الآية ٨٩ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٧٢ .

(١) سورة طه الآية ١٠٨ .

(٣) سورة الناشية آية ١١ .

كل الأولاد انما أى : لغو إلا أولاد الإبل ، فإنها لا تلغى ، لأنك إذا اشتريت شاة أو وليدة معها ولد ، فهو تبع لها ، لأثمن له مسمى ، إلا أولاد الإبل .. معرضون : ذاهبون عرضاً ، مبتعدون عنه ، منفصلون متميزون ، اللغو فى واد ، وهم بعيدا عنه فى واد آخر ، يقال : أعرض فلان أى : ذهب عرضاً وطولاً ، وعرض الشيء أى : أبرزه ، قال تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ (١) ، أى : أبرزناها حتى نظر إليها الكفار ، ويقال : أعرضت هى أى : ظهرت واستبان ، قال عمرو بن كلثوم :

فأعرضت اليمامة واشتخرت كأسياف بأيدى مصالمتينا

أى : أبدت عرضها ولاحت جبالها للناظر .. وأعرض لك الخير : أمكنك منه ، وأعرض لك الظبي : أمكنك من عرضه ، إذا ولاك عرضه ، وأعرض فى الشيء : تمكن من عرضه ، قال ذو الرمة :

فعال قى بنى وبني أبوه فأعرض فى المكارم واستطلا

وأعرض عن الشيء : انفصل عنه وامتاز ، وبرز بعيدا عنه ..

الزكاة : أصل الزكاة فى اللغة : الطهارة والنماء والبركة والمدح وقد استعملت فى القرآن والحديث بكل هذه المعانى قال تعالى : ﴿ فَلَا تَزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (٢) .
أى : لا تمدحوا ، وقال عز وجل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ (٣) .
أى : تطهر بالإيمان .. وقال عز قائله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٤) .
أى : طهرها من الذنوب وقال على كرم الله وجهه : « المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق » .
أى : ينمو ويزداد .. وتطلق الزكاة أيضا على الصلاح قال تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً .. ﴾ (٥) .
أى : صلاحا ، وقال

(٢) سورة النجم آية ٣١ .

(٤) سورة الشمس آية ٩ .

(١) سورة الكهف آية ١٠٠ .

(٣) سورة الاعلى آية ١٤ .

(٥) سورة الكهف آية ٨١ .

تعالى : « وَتَوَلَّأَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » (١) أى : ما صلح ولكن الله يصلح من يشاء ...
 وتطلق الزكاة فى الشرع على المال المخصوص أى القدر المعين الذى حدده
 الشرع فيخرجه الإنسان من ماله فى زمن محدد ، وقد سمي هذا الجزء زكاة ، لأنه
 تطهير للمال وتتمير وإصلاح ونماء .. كما تطلق الزكاة على فعل المزكى ، فهى من
 الأسماء المشتركة بين المخرج والفعل ، فتطلق على المخرج أى : العين وهى الطائفة
 من المال ، المزكى بها ، وعلى معنى التزكية أى : فعل المزكى .. وقد قيل إن المراد بها
 فى الآية الكريمة : التزكية أى فعل المزكى ، فهذا مراد الله عز وجل ، إذ جعل
 المزكين فاعلين للتزكية ، وأما المعنى الثانى للزكاة وهو العين أو القدر المخرج
 فلا يكون نفسه مفعولا لهم ، وعلى ذلك يكون وصفهم بفعل التزكية دالا على
 أداء العين بطريق الكناية وقيل المراد بالزكاة فى الآية : العين ويقدر مضاف
 محذوف والمعنى : والذين هم لأداء الزكاة فاعلون ، أو تضمين « فاعلون » معنى
 مؤدين ، وقيل المراد بالزكاة : العمل الصالح ، كما فى قوله تعالى : « خَيْرٌ مِنْهُ
 زَكَاةٌ » ، وقيل المراد بها التطهير ، كما فى قوله : « قَدْ أَمْلَحَ مَنْ تَزَكَّى »
 ويؤيد هذين القولين الفصل بين الصلاة والزكاة بقوله تعالى : « والذين هم عن
 اللغو معرضون » ، وأيضا كون السورة مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة .. وأرى
 - والله أعلم بهراده - أن قوله « للزكاة » مفعول لأجله ، والمعنى : والذين هم من
 أجل الزكاة فاعلون مجدون ، وقد آثر النظم الكريم هذا التعبير حثا على العمل
 والسعى والكسب ، فال مؤمن يسعى ويكد ليس فقط لكي ينفق على نفسه
 وعياله ، بل من أجل الزكاة .. من أجل أن يصير غنيا ولديه المال الذى يجب فيه

الزكاة .. « والذين هم للزكاة فاعلون ، أى مجدون مكافون ، لا متقاعدون متكاسلون ..

والفرج ؛ العورة، وهو اسم لجمع سوءات الرجال والنساء والفتيان وما حواليها ، كله فرج ، وكذلك من الدواب ونحوها من الخلق ، ورجل فرج بكسر الراء : لا يزال ينكشف فرجه ، فالفرج : الذى يبدو فرجه إذا جلس وينكشف ، والأفرج : عظيم الألتين لاتكادان تلتقيان .. والفرج بكسر الفاء وسكون الراء : الذى لا يكتم السر ، والفرج بفتح الفاء والراء : انكشف الكرب وذهاب الغم .. ويطلق الفرّج بالسكون : على ما بين القوائم وما بين اليدين والرجلين ، يقال : جرت الدابة ملء فروجها ، وعلى الخلل بين الشيتين وجمعه فروج ، والفرجة بالضم : انفراج الحائط وما أشبهه ، يقال فرجة الحائط ، وهى اسم ، جمعها : فرجات وفرج وفي حديث صلاة الجماعة : « ولا تذروا فرجات الشيطان » وفي رواية « فرج الشيطان » وهو الخلل الذى يكون بين المصلين فى الصفوف فأضافها إلى الشيطان تفضيحا لشأنها وحملها على الاحتراز منها ، والفرجة بفتح فسكون مصدر ، وهى الراحة من الحزن والمرض والهم .. والزوج : زوج المرأة بعلمها ، وزوج الرجل امرأته ، ولم ترد فى القرآن الكريم إلا بالقد كبير .. « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » (١) .. « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » (٢) .. « وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مِمَّنْ زَوْجِ » (٣) ، ولذا أباهما الأصمعى بالهاء فلا يقال : زوجة ، وأجازها البعض فقال : الرجل زوج المرأة وهى زوجه وزوجته ، ومنه قول الفرزدق :

وإن الذى يسعى يحرش زوجتى

كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(١) سورة الأعراف آية ١٩ .

(٣) سورة النساء آية ٢٠ .

ويطلق الزوج على خلاف الفرد يقال: زوج أو فرد، قال تعالى: «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»^(١) ويقال: هما زوجان للأنثيين وهما زوج، كما يقال: هما سيان وهما سواء، قال ابن سيدة: الزوج: الفرد الذى له قرين، والزوج: الاثنان، ويقال: عندى زوجان من الحمام، ولا يقال: عندى زوج حمام، قال تعالى: «وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ»^(٢)..

أو ما ملكت أيمانهم: المراد السريات من الإماء اللاتي يتسرى بهن، والآية خاصة بالرجال، فإن التسرى للنساء لا يجوز بالإجماع، فقد ورد أن امرأة تسرت غلاما على عهد عمر رضى الله عنه، فذكر ذلك له فسألها: ما حملك على هذا؟ فقالت: كنت أرى أنه يحل لى ما يحل للرجال من ملك اليمين، فاستشار عمر فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: تأولت كتاب الله تعالى على غير تأويله فتعال رضى الله عنه: لا جرم، لا أحلك لحر بعده أبدا، كأنه عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها وأمر العبد ألا يقربها..

اللوم: العذل ومثله اللوماء واللومى واللائمة، يقال: لام يلوم لوما وملاما، وألام ولوم، فلام وألام. بمعنى واحد ولوم شدد للبالغه، وألام الرجل: أتى ما يلام عليه، واستلام الرجل إلى الناس: استندم وأتى إليهم ما يلومونه عليه، وألام الرجل فم-و هليم بضم الميم: أتى ذنبا يلام عليه، قال تعالى: (فَالْقَمَّةُ الْخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)^(٣) ويقال: لام يلاوم فهو ملوم ومليم بفتح الميم، كأنهم استنقلوا الواو مع الضمة فعدلوا إلى الياء والكسرة، أما ألام فيقال فيه: مليم بضم الميم..

وقوله تعالى: «على أزواجهم» متعلق بمحذوف فى موضع نصب على الحال

(٢) سورة النجم آية ٤٥

(١) سورة ق آية ٧

(٣) سورة الصافات آية ١٤٢

أى : إلا والين على أزواجهم أو قوامين عليهن ، من قولك : كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان ، ومنه قولهم : فلانة تحت فلان ، ولذا سميت المرأة فراشا ، والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريحهم ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف يدل عليه قوله : « غير ملومين » وكأنه قيل : يلامون إلا على أزواجهم ، أى : يلامون على كل مباشرة إلا على أزواجهم أو ماملكت أيانهم فإنهم غير ملومين على مباشرتهم ، ويجوز جعله صلة لحافظين اتضمينه معنى ممسكين ، والإمساك يتعدى بعلى ، كما في قوله تعالى : **« أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ »** ^(١) وذهب جمع إلى اعتبار معنى النفسى المفهوم من الإمساك ليصح التفرغ ، والمعنى : والذين هم لفروجهم حافظون لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم أو ماملكت أيانهم ، وقيل إن « على » بمعنى « من » ، كما أن « من » وردت بمعنى « على » في قوله تعالى : **« وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا »** ^(٢) أى : نصرناه عليهم ، والمعنى : والذين هم لفروجهم حافظون إلا من أزواجهم أو ماملكت أيانهم .. ولا يجوز أن يتعاق بملومين المذكور بعد في قوله : « فإنهم غير ملومين » لأمرين : وقوعه بعد إن ، وكونه مضافا إليه وما بعد إن لا يعمل فيما قبلها ، وكذا المضاف إليه لا يعمل فيما قبله .. والفاء في قوله : « فإنهم غير ملومين » للسببية ، فهو تعليل لما يفيد الاستثناء من عدم حفظ فروجهم من المذكورات ، أى : لأنهم غير ملومين على ترك حفظها منهن .. وقيل الفاء في جواب شرط مقدر والمعنى : فإن بذلوا فروجهم لأزواجهم أو لإهائهم فإنهم غير ملومين على ذلك ..

ابتغى : طلب وأراد ، يقال : بغى الشيء بغوا أى : نظر إليه كيف هو ، والبغو يطلق على ما يخرج من زهرة القتاد الأعظم الحجازى ، وعلى ما يخرج

(٢) سورة الأنبياء آية ٧٧ .

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

من زهرة العرفط والسلم ، وعلى الثمر قبل أن ينضج ومفرده : بغوة .. ويقال :
 بغى الشيء يبغيه : بغاء وبغى أى طلبه وأراده ، وكذلك ابتغى وتبغى واستبغى
 كل ذلك بمعنى : طلبه وأراده .. ويقال : بغى الخير بغية وبغية بضم الباء وكسرها ،
 وبلغت الأمر من مبعاته ، كما تقول : أتيت الأمر من مآتاته ، تريد المآتى والمبغى ،
 وفلان ذو بغية وبغاية وبغاء . أى : ذو طلب وذو حاجة .. والبغية : الضالة
 الميغية ، والباغى الذى يطلب الشيء الضال . جمعه : بغاة وبغيان .. والبغية فى
 الولد نقبض الرشدة ويقال : بغت الأمة تبغى بغيا ، وبغت مباغاة وبغاء أى :
 زنت وعهرت ، فهى بغى وبغو ، وقيل البغى : الأمة فاجرة كانت أو غير فاجرة ،
 وقيل البغى : الفاجرة حرة كانت أو أمة ، وفى التنزيل « وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ
 بَغِيًّا »^(١) أى : فاجرة ، ولا يقال : بغية بالتاء .. والبغى : التعدى والظلم والفساد
 ومجازة الحد قال تعالى : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
 وَمَا بَطَّنَ وَالْإِنْتِمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ . . . »^(٢)

ونصب « وراء » على أنه مفعول « ابتغى » والمعنى : فمن ابتغى خلاف ذلك ،
 وقال بعض المحققين إنه ظرف لا يصلح أن يكون مفعولا به ، وإنما هو ساد
 مسد المفعول به ..

العادون : المجاوزون ما حدد لهم وأمروا به ، فالعادى : الظالم ، يقال :
 لا أشمت الله بك عاديك ، أى : عدوك الظالم لك ، وفى الحديث : « ما ذئبان
 عاديان أصابا فريقة غم » ، فالعادى : الظالم وأصله من تجاوز الحد فى الشيء ،
 والسبع العادى أى : الظالم الذى يفترس الناس .. ومنه : التعدى والاعتداء
 والعدوان أى الظلم ، قال تعالى : « وَلَا تَمَآ وَنُوا عَلَى الْإِنْتِمِ وَالْمُدْوَانِ »^(٣)

(٢) سورة الأعراف آية ٣٣ .

(١) سورة مريم آية ٢٨ .

(٣) سورة المائدة آية ٢ .

وقال عز وجل : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا...^(١)
 أى : لا تتجاوزوا الحد، والتعدى: مجاوزة الشيء إلى غيره... .

الأمانة : مصدر أمن والمراد به فى الآية كل ما اتمن عليه ، إذ الحفظ للعين لا لا معنى ، ولا يقال : إن الذى عينها للعين جمعها ؛ لأن المصادر قد تجمع ، وإنما الذى عينها قوله : « راعون » ، فالذى يراعى ويحفظ هو العين لا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ لَشَوَّذُونَ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ آهَانًا »^(٢) وقوله عز وجل : « وَتَحْوَنُوا أَمَانَاتِكُمْ »^(٣) ، فالذى يؤدى : الأعيان لا المعاني، والذى يخان ، المؤمن عليه ، لا الأمانة نفسها .. وقد جمعت الأمانة دون العهد؛ لأنها متعددة متنوعة، تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان والتكليف والأعضاء ، وكل ما اتمنت عليه من قبل الله تعالى أو من قبل العباد ..

والعهد : مصدر أريد به ما عاهدوا عليه كالأمانة ، أى : لم يرد به المعنى المصدرى ، ويطلق العهد على الوصية وعلى الحفاظ ورعاية الحرمة ، وعلى الأمان وعلى الائتقاء والمعرفة ، يقال : عهد الشيء عهدا : عرفه .. والمراد فى الآية : كل ما عاهد الله عليه ، وكل ما بين العباد من المواثيق ..

والراعى : القائم على الشيء بحفظ وإصلاح ، كراعى الماشية وراعى الرعية ، ويقال : من راعى هذا الشيء؟ أى : متوليه وصاحبه ويطلق الراعى على الوالى، والرعية على العامة ، وكل من ولى أمر قوم فهو راعيهم وهم رعيته ، ويقال : استرعاه أى : استخفظه ، واسترعيته الشيء فرعاه ، وفى المثل : من استرعى الذئب فقد ظلم ، وراعى النجوم : مراقبها ، والمراعاة : المناظرة والمراقبة والملاحظة ، ويقال : ارعوى فلان عن الجهل يرعوى ارعواء أى : كف عن الشيء ونزع ، وحسن رجوعه ..

(٢) سورة النساء آية ٥٨ .

(١) سورة البقرة آية ١٩٠ .

(٣) سورة الأنفال آية ٢٧ .

والإرث : يقال : ورث فلان فلانا يرثه إرثا وورثا ورثته ووراثته ووراثته، وورثته ماله ومجده، وورثته عنه، وذلك إذا مات المورث فيصير ميراثه لوارثه .. والمراد بالورث في قوله تعالى : « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْمَلُهُ رَبُّ رَضِيًّا »^(١) وقوله عز وجل « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ »^(٢) ورث النبوة لا المال . لقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركناه فهو صدقة .. والوارث صفة من صنات الله عز وجل ، فهو الباقي الدائم ، الذي يرث الخلائق ، ويبقى بعهد فنائهم ، فالله عز وجل يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، أى : يبقى بعد فناء الكل ، فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له ..

والمراد بالوارثين في الآية الكريمة : الباقون في الجنة ، فالجنة تبقى عابهم كما يبقى مال المورث على وارثه ، ولأن المؤمنين يلقون ربهم يوم القيامة ، قد انقضت أعمالهم ، وثمرتها باقية ، وهى الجنة ، فإذا أدخلهم الجنة ، فقد أورثهم من تقواهم ، كما يورث للوارث المال من المتوفى ، وقيل يرثون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو أطاعوا ..

الفردوس : ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها ، جاء فى الصحيحين : « إذا سألتهم الله الجنة ، فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ، وقد أنث الفردوس على تأويل الجنة أو طبقتهما العليا ، وهو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمار ، وروى أن الله عز وجل بنى جنة الفردوس لبننة من ذهب ولبننة من فضة وجعل خلالها المسك والأذفر ..

وخالدون : باقون دائمون ، وجملة : « هم فيها خالدون » إما جملة مستأنفة ، مقررة لما قبلها ، وإما حال من فاعل « يرثون » أو من مفعوله ...

(٢) سورة النمل آية ١٦ .

(١) سورة مريم آية ٥ ، ٦ .

الأغراض والمزايا البلاغية : في قواه تعالى : « قد أفلح المؤمنون » عبر عن الفلاح المستقبل بالماضى ليمرّز ثباته ويدل على تحققه وأنه واقع لا محالة ، وقد أكد بقدر لهذا الغرض ، وكأنه قيل : قد تحقق أن المؤمنين هم أهل الفلاح في الآخرة .. وفي قراءة « أفلحوا » إبهام يعقبه الإيضاح والبيان ، وللإيضاح بعد الإبهام وقعه في الأنفس ، لأن الشيء إذا إبهم تطلعت النفس لمعرفة واشتاتت واستشرفت لإيضاحه وبيانه ، فعندهما يأتي البيان والإيضاح يقـع في النفس موقعه ، لأنه جاء والنفس له مياأة وإياه متطلعة مترقبة .. وقوله تعالى : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » ، استئناف بياني ، لأنه بمثابة جواب لسؤال أثارته الآية قبل ، وكأن القارىء لقوله : « قد أفلح المؤمنون » ، يثار في نفسه سؤال : من هم هؤلاء المؤمنون الذين تحقق فلاحهم؟ فيأتي الجواب : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » .. وفي إثارة هذا التعبير : « صلاتهم » وإضافة الصلاة إليهم معنى دقيق لطيف وهو الدلالة على أن الله غنى عن العالمين ؛ لأن الصلاة دائرة بين المصلى والمصلى له ، فالمصلى هو المنتفع بها وحده ، وهي عدته وذخيرته ، فهي صلاته ، وأما المصلى له فعنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » (١) .. وتقديم الجار والمجرور في قوله « والذين هم عن اللغو معرضون » يدل على القصر أى : قصر إعراضهم على اللغو لا يتعداه إلى غيره ؛ فهم يقبلون على صالح الأعمال وما يقرب إلى الله ولا يعرضون إلا عن اللغو ^و في إثارة التعبير بالإعراض دون الترك ما يدل على تباعدهم رأسا عن اللغو وأنهم عنه بمنأى ومعزل ، لأن أصله أن يكون في عرض أى : ناحية غير عرضه .. وأكثر ما تذكر العبادتان : الصلاة والزكاة في القرآن معا بلا فاصل ، ولا يكن فصل بينهما هنا بالإعراض عن اللغو لـكـمال ملابسته بالخشوع في الصلاة ، وكأن الله عز وجل لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك

الشاقين على الأنفس الذين هما قاعدنا ببناء التكليف .. أما تقديم الظرف في قوله « الذين هم في صلاتهم خاشعون » فقيل ليقرب ذكر الصلاة من ذكر الإيمان، وقيل : رعاية للفاصلة، وقيل للتأكيد وتقوية الحكم وشمول الخشوع لكل صلاة، على معنى : الذين هم في جميع صلاتهم دون بعضها خاشعون .. وفي تقديم وصفهم بالخشوع في الصلاة على سائر ما يذكر من الأوصاف ما يدل على التنويه بشأن الخشوع، فقد ورد أن الخشوع أول ما يرفع من الناس ويفقدونه من دينهم .. وفي إثبات التعبير عن هذه الأوصاف بأسماء الفاعلين : خاشعون، معرضون، فاعلون، حافظون راعون، الوارثون، ما يدل على الثبات والدوام، وهذا أبلغ من التعبير بالأفعال، لأن الأفعال تدل على التجدد والحدوث، فالتعبير بأسماء الفاعلين قد أبرز اتصافهم بتلك الأوصاف في معرض الثبات والدوام وهذا أقوى في أداء المعنى وأبلغ .. أما التعبير بالفعل في قوله : « على صلواتهم يحافظون »، فلأن المقام قد اقتضى ذلك، لما في الصلاة من التجدد والتكرار، ولذا جمعت هنا وأفردت هناك، في أول السورة ... وفي تصدير الأوصاف وختمها بذكر الصلاة، تعظيم لشأنها وإعلاء لمنازتها، وتقديم الخشوع للاهتمام، فإن الصلاة بدونها ليست صلاة، وقد قالوا : صلاة بلا خشوع جسد بلا روح .. يقول الزمخشري : « فإن قلت : كيف كرر ذكر الصلاة أولا وآخرا ؟ قلت : هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، ووصفوا أولا بالخشوع في صلاتهم وآخرا بالمحافظة عاينها، وذلك ألا يسهوا عنها ويؤدوها في أوقاتها ويقيموا أركانها ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها، وأيضا فقد وحدث أولا ليفاد الخشوع في جنس الصلاة، أي صلاة كانت، وجمعت آخرا لتفاد المحافظة على أعدادها وهي : الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنائز والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجيد وصلاة التسميح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل .. » (١) .

وفي قوله تعالى : « والذين هم الزكاة فاعلون » أوتر التعبير بلفظ « فاعلون » دون « مؤدون » للحث على العمل ، ومضاعفة الجهد ، بالانتشار في الأرض ، والابتغاء من فضل الله ، فقد أفاد لفظ « فاعلون » ، وأنبأ بأن المراد هو العمل ، والفعل من أجل الزكاة ، لا مجرد أدائها .. وفي قوله : « والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » ذكر للخاص بعد العام اعتناء بشأنه ، فإن وصفهم بالإعراض عن اللغو استدعى وصفهم بالعفة ، ويجيء الخاص بعد العام هنا يحقق غرضين بلاغيين ، أولهما : الاعتناء بشأن الخاص كما قلت ، ثانيهما : تحقيق كمال العفة ؛ لأن ما تقدم وإن استدعى وصفهم بأصل العفة ، فقد جرى بهذا الخاص لما فيه من الإيدان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى ما لا يخفى ، وأنهم حافظون لها عن استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق وصفهم بكمال العفة .. وفي إيثار التعبير عن الإمام « بما » دون « من » دلالة على أن من جنس العقلاء ما يجري بجرى غير العقلاء وهم الإناث ؛ لأن أنوثتهن المنبئة بضعفهن وقلة تفكيرهن جعلتهن جاربات بجرى غير العقلاء ، وأيضا لأنهن يشبهن السلع يباعا وشراء .. وفي وقوع الأيمان فاعلا المالك في قوله : « ملكت أيمانهم » ، ما يدل على شرف اليمين وتقديمها على الشمال ، فقد استعملت في وضع العناية والاهتمام ، وأمرنا الإسلام بتقديمها وتشریفها ، اقرأ قول الشاعر :

ألم تك في يميني يديك جعلتني فلا تجعلني بعدها في شمالك

واقرأ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك .. » جعلنا الله من أهل اليمين .. وفي قوله « فأوائك هم العادون » قصر لصفة التعدى عليهم لاتعدادهم إلى غيرهم ، فهم الكاملون في العدوان المتناهون فيه ، وفي استخدام اسم الإشارة الموضوع للبعيد « أوائك » ما يدل على تحقيرهم وإبعادهم وطردهم من رحمة الله ، وكأنهم ينبغي أن يطردوا عن ساحة الحضور ويععدوا ، ولا يخفى عليك أنه قد روعى لفظ « من » في قوله : « ابتغى وراء ذلك » ، وروعى معناها في قوله : « فأوائك هم العادون » .. وفي قوله :

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ذكر للعام بعد الخاص ، لأن حفظهم لفرجهم يدخل فيه ، وكأنه جل وعلا بعد أن ذكر حفظهم لفرجهم ذكر حفظهم لما يشملها وغيرها ، ففيه تنويه بشأن الخاص - كما قلنا - لذكره مرتين مرة مفصلاً ومرة مجملًا .. وفي قوله : « أولئك هم الوارثون » قصر لصفة الورث عليهم لاتعدادهم إلى غيرهم وتنبية إلى علو مكانتهم وسمو منزلتهم وذلك باستخدام اسم الإشارة الموضوع للبعيد « أولئك » وقد وقع اسم الإشارة هنا موقعاً لطيفاً ، لأنه ذكر بعد تلك الأوصاف فأفاد أن المؤمنين الموصوفين بهذه الأوصاف السامية جديرون من أجلها بما يذكر بعد اسم الإشارة من جزاء : « هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس » .. وفي قوله : « الذين يرثون الفردوس » بيان لما يرثون وتوضيح المورثة بعد إطلاقها وتفخيخها وتأكيدها ، فبين الجملتين كمال اتصال .. وفي قوله : « الوارثون » استعارة تصريحية تبعية حيث شبه استحقاقهم الجنة بما قدموا من صالح الأعمال بالورث ثم حذف المشبه وطرح وادعى أنه صار فرداً من أفراد المشبه به ودخل في جنسه ثم اشتق من الورث « الوارثون » بمعنى « المستحقون » على سبيل الاستعارة التبعية ، وتنبى ، هذه الاستعارة بأن أولئك المؤمنين قد نالوا تلك المنزلة بما قدموا فهم قد ورثوا ثمرة أعمالهم وجزاء تقواهم فاستحقوا الخلود في الفردوس : « يرثون الفردوس هم فيها خالدون .. »

معاني الآيات الكريمة : بدأت السورة الكريمة بالإخبار ، فأخبرت أن المؤمنين قد تحققوا فلاحهم وفوزهم بالنعيم وبقارهم في الجنة والخير ، ثم أخذت في إبراز صفات أولئك المؤمنين ، التي من أجلها استحقوا هذا الفلاح ، ونالوا تلك المنزلة ، وصاروا ورثة الفردوس .. وقد صدرت تلك الصفات بالصلاة وختمت أيضاً بها وذلك لتعظيم شأنها ولفت المؤمن إلى أهميتها ومكانتها .. فأول وصف من أوصاف أولئك المفلحين الخشوع في الصلاة : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » ، يستحضرون عظمة الله ويخافونه ، فتسكن جوارحهم ،

وتتشعر جردهم، فلا ينشغلون بغير الصلاة، يتدبرون ما يقرأون ويكفون عن كل ما ينافي التأدب أمام الله عز وجل، كالنثاؤب والتطلى وكف الثوب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفروقة والتشبيك وتقليب الحصا والتمايل والالتفات، وغير ذلك مما يتنافى مع الخشوع والتأدب، فقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»، ورأى رجلا يصلي وهو يعيث بلحيته فقال: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه»، وهدد من لا يخشعون في صلاتهم فقال: «لينيئين أقوام يرففون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم».. فالخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وعندئذ تكون راحة له وقرّة عين كما كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو القائل: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»، وكان يقول لبلال: «يا بلال أرحنا بالصلاة».. والوصف الثاني لأولئك الورثة إعراضهم عن اللغو: «والذين هم عن اللغو معرضون» فهم يتقبلون على الخير وينشغلون بمواطن الزلفى، أما اللغو بأنواعه فهم عنه بمعزل ومنأى، قد نجسوه وأعرضوا عنه.. والوصف الثالث: تفانيهم في العمل كما تفانوا في العبادة، فالإسلام دين عبادة وعمل، وأولئك النمازون لم يتقاعدوا ولم يتكاسلوا بل توكّلوا على الله واجتهدوا في العمل والعبادة، فلم يعملوا من أجل تحصيل قوتهم وقوت عيالهم فقط، بل عملوا من أجل الفقراء والمساكين، عملوا من أجل الزكاة: «والذين هم الزكاة فاعلون»، وهذا يدل على مدى حبهم للبذل والعطاء وتنفيذ أوامر الله.. والوصف الرابع: التعنف وحفظ الفرج: «والذين هم لزوجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون»، ولا يخفى عليك النوع الشديد لمن ابتغى لفرجه ما وراء ذلك الذي أحله الله، فقد أحل سبحانه وتعالى أربعاً من الحرائر، وما نشاء من الإماء اللاتي تمتلكنهن، وفي هذا الكفاية فليحفظ الفرج عما عداه، ولذلك وصف سبحانه وتعالى من ابتغى وراء ذلك بقوله: «فأولئك هم العادون»، الكاملون في العدوان المتناهون فيه، وقد

استند العلماء إلى هذه الآية الكريمة في تحريم نكاح المتعة ، لأن المستمتع بها لا يقال لها زوجة ، لانتهاء الغرض من النكاح وهو التوالد والتناسل ، وكذا في تحريم وطء الهيمة والاستمناء باليد ، فكل هذا داخل في قوله : « وراء ذلك » ولو كان شئ من ذلك جائزاً لما أباح الله للحر نكاح الأمة في قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَفْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَأْكَلْتُمْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ » (١) ولما أمر سبحانه بالتعفف في قوله : « وَلْيَسْتَمْتِعِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُفْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » (٢) وارجع إلى تنصيل ذلك في كتب الفقه ..

ثم وصف الله تبارك وتعالى أولئك المفلحين بوصفين آخرين : رعاية الأمانات والعهد ، فهم يؤدون الأمانات إلى أهلها ولا يخونون ، والأمانات كثيرة ، فما كلفك الله به أمانة وما أودعه فيك من عقل وسمع وبصر وفرج ولسان وأيد أمانة ، وما استرعاك عليه من أهل وولد أمانة ، وحقوق العباد عليك أمانة وما أودع عندك أو استؤمنت عليه أمانة ، وعلى المؤمن أن يكون قائماً على تلك الأمانات وعلى عهده بحفظ وإصلاح ، وألا يفرط فيها ، حتى يكون من أولئك الورثة ، ويكون بمنجاة من صفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أتمن خان » ..

والوصف الثاني : المحافظة على الصلوات ، فهم يؤدونها في أوقاتها ويحافظون على شروطها ، ويتمون ركوعها وسجودها وسائر أركانها ، ولا يتكاسلون عن سننها ونوافلها ، ولفضل الصلاة وعظم شأنها ، فقد صدرت بها ثم ختمت ، تلك الصفات السامية ، صفات أولئك المفلحين الذين استحقوا بها أن يكونوا

الوارثين ، فنعلم الورثة ، ونعلم الميراث ، لأنه الفردوس ، الذى قال فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت فى الصحيحين : « إذا سأتم الله الجنة فاسأله الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، .. »

* * *

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّقُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ . »

اللغة والإعراب : ولقد : اللام واقعة فى جواب قسم محذوف ، والواو : قيل للاستئناف بمعنى القطع ، والجملة بعدها مبتدأة ، وقيل عاطفة لجملة من الكلام على جملة أخرى وإن تباينت فى المعازى ، وهى التى عرفت عند البلاغيين بواو القصة أو واو الاستئناف ..

وخلق : أصل الخلق : التقدير ، تقدير ما منه وجد الإنسان ، أو إيجاده على وفق التقدير ، والخلق فى كلام العرب : ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه ، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه ، فالخلق يطلق على أحد أمرين : الإنشاء والإيجاد على غير مثال ، والتقدير ، ومن صفات الله تعالى الخالق والخالق ولا تجوز هذه الصفة بالألف واللام لغير الله عز وجل ، فهو الذى أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة .. والخالقة : الفطرة ، والخالقة : الطبيعة التى خلقها عليها الإنسان .. والخلق والخالق بضم اللام وسكونها جمعه ، أخلاق ، وهو السجية أو الطبيعة قال تعالى : « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَابِدٍ »^(١)

والخلق بفتح فسكون، وكذا الاختلاق: الكذب والانتحال، يقال: هذه قصيدة مخلوقة أى: منجولة إلى غير قائمها، وقيل فى قوله تعالى: «إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ» (١) أى: تخرص وكذب.. وخلق الشيء بالفتح خلوقا وخلوقة وخلق بالضم خلاقه وخلق بالكسر وأخاق إخلاقا واخلوق: بلى، فيقال: خلق الثوب بفتح اللام وضمها وكسرها أى: بلى، وأخاق الدهر الشيء: أيلاه.. والخلق بالتخفيف: الحظ والنصيب من الخير والصلاح، قال تعالى: «وَمَا لَهُمْ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ» (٢) ويقال فلان خابق لكذا أى: جدير به، وهو خابق له أى: شبيهه، وما أخلقه أى: ما أشبهه.. والخلوقة بضمين: الملائسة، والخلق بفتح الحاء والخلق بكسرها: ضرب من الطيب ..

والإنسان: المراد به: الجنس أو آدم عليه السلام، وقيل المراد به: أفراد بني آدم.. والسلالة: الخلاصة من سلالت الشيء من الشيء إذا استخرجته منه، فهى ماسل من الشيء واستخرج منه، لأن فعالة بضم الفاء اسم لما يحصل من الفعل، فتارة تكون مقصودة منه، كما فى الآية، فهى الخلاصة، وتارة تكون غير مقصودة منه، كالقلامة والكناسة والقمامة.. يقال سللت الشعر من العجين، والسيف من الغمد فانسِل، ولذا تطلق السلالة على النطفة، فهى سلالة الإنسان، وعلى الولد فهو سائل أبويه، وسمى سايلا لأنه خلق من السلالة، فالسائل: الولد حين يخرج من بطن أمه، قال الفراء: السلالة الذى سل من كل تربة، وقيل: السلالة ماسل من صلب الرجل وترائب المرأة، كما يسل الشيء سلا، وقيل السلالة: الطين، إذا عصرته انسل من بين أصابعك فالذى يخرج هو السلالة، وقال بعضهم: السلالة الماء، والدليل على أنه الماء قوله تعالى: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ» يعنى آدم «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ» (٣) ..

(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٠.

(١) سورة ص الآية ٧.

(٣) سورة السجدة آية ٨، ٧.

والأولى عدم التخصيص - كما رأى الفراء - لأنها يذنت مرة بأنها من طين، كما هنا ، ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ويذنت مرة أخرى بأنها من ماء مهين ، كما في آية السجدة المذكورة ، ولذا أرجح أن يكون معنى السلالة : الخلاصة من كل شيء ...

و « من » الأولى في قوله : « من سلالة » ابتدائية متعلقة بخاق ، و « من » الثانية في قوله « من طين » بيانية متعلقة بسلالة على أنها بمعنى مسالوة ، أو متعلقة بحذوف وقع صفة لسلالة أي : سلالة كائنة من طين .. وجوز أن يكون « من طين » بدلا أو عطف بيان بإعادة الجار ، والمعنى : ولقد خلقنا الإنسان أي : آدم عليه السلام من طين ، وعلى اعتبار أن المراد بالإنسان الجنس ، يكون خلقه من طين باعتبار خلق أول الأفراد وأصل النوع ، وهو آدم عليه السلام ، منه ، فالكل مخلوق من ذلك خلقا إجماليا في ضمن خلقه عليه السلام ، وقيل خلق الجنس من ذلك باعتبار أنه مبدأ بعيد لأفراد الجنس ، فإنهم من النطف ، الحاصلة من الغذاء ، الذي هو سلالة الطين وصفوته ، وفيه وصف الجنس بوصف أكثر أفرادها ، لأن خلق آدم عليه السلام لم يكن كذلك ، أو يقال ترك بيان حاله عليه السلام لأنه معلوم ، والمراد بالإنسان عندئذ : أفراد بني آدم ، أو الجنس باعتبار أكثر أفرادها .. وقيل المراد بالطين : آدم عليه السلام ، مجازا مرسل باعتبار ما كان ، والمراد بالسلالة النطفة وبالإنسان : الجنس باعتبار أكثر أفرادها والمعنى : ولقد خلقنا أفراد بني آدم من نطفة منه عليه السلام .. والضمير في قوله : « ثم جعلناه » يعود إلى الإنسان باعتبار أفرادها المغايرة لآدم ، وإذا أريد بالإنسان أولا آدم ، فالضمير عائد على غير مذكور ، وجاز لوضوحه وشهرته أو على الإنسان ويقدر مضاف أي : ثم جعلنا نسله ، أو أن الأسلوب جار على الاستخدام حيث يراد بالإنسان « آدم » وبالضمير العائد عليه : أفراد بني آدم الذين تناسلوا منه .. ويجوز أن يعود الضمير على « سلالة » على تأويلها بالمسلول والمعنى ثم صيرنا السلالة نطفة ..

وتعرب «نظنة» مفعولا ثانيا للفعل جعل على أنه بمعنى «صير» فإن كان الضمير عائدا على الإنسان أريد به ماسي صير إنسانا ، وإن عاد إلى السلالة فلا مجاز كما هو واضح .. ويجوز أن يكون الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد فتكون : «نظنة» منصوبة بنزع الخافض ، والمعنى : ثم خلقنا الإنسان من نظنة كائنة في قرار مكين ..

والنظنة : الماء القليل ، وتطلق أيضا على الماء الكثير ، وهى بالقليل أخص ، ولا فعل لها ، وتجمع على نطف ونطاف ، والنظفة أيضا : ماء الرجل ، قالوا إذا أريد بها الماء الصافي تجمع على نطاف ، وإذا أريد بها ماء الرجل تجمع على نطف ، وفي الحديث : «تخيروا لنطفكم» وفي رواية : «لا تجعلوا نطفكم إلا في طهارة» ..

والعلقة : قطعة الدم الجامدة ، والعلق : الدم العبيط أى : الطرى أو المتجمد ، وقيل الشديد الحمرة ، والمراد : الدم الجامد المتكون من المنى ... والمضغة : القطعة من اللحم قدر ما يبيض الماضغ ، تتكون من العلقة .. والله عز وجل يخلق المضغة متفاوتة ، منها ما هو كامل الحلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو عكس ذلك ويتبع هذا تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتماهم ونقصانهم ، وذلك قوله تعالى : « ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ .. » (١) .. والقرار : المستقر وهو فى الأصل مصدر من قر يقر قرارا بمعنى : ثبت ثبوتا ، وأطلق على ذلك مبالغة ، والمراد به الرحم ، وقد وصفه بقوله : «مكين» وهو فعيل بمعنى فاعل ، مع أن التمكن وصف ذى المكنان ، وهو النظفة هنا ، مبالغة فى حفظها واستقرارها ، وجائز أن يقال : إن الرحم نفسها متمكنة ، ومعنى تمكنها : أنها لا تنفصل لثقل حملها ، أو لا تجم

ما فيها، فهو كناية عن جعل النطفة محرزة بصوتة ، وهذا معنى قوله : « يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ » (١) ، قلوا : الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة، وقيل : الصلب والرحم والبطن ، وهذا ما يجعل النطفة وما يتلوها من مراحل الخلق مستقرة تمام الاستقرار ، متمكنة غاية التمكن « في قرار مكين » ..

والخلق الآخر : المباين للخلق الأول مباينة ما أبعدها مباينة ، حيث جعل حيوانا ناطقا سميعا بصيرا ، وأودع كل عضو منه وكل جزء عجائب وغرائب لا تدرك بوصف ولا تبلغ بشرح ، والله در القائل :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وقيل : الخلق الآخر الروح ، والمراد بها النفس الناطقة ، والمعنى : أنشأنا له أو فيه خلقا آخر والمتبادر من إنشاء الروح خلقها ، وقيل لإنشائها : نفخها في البدن .. وقيل الخلق الآخر : القوى الحساسة .. وقيل غير ذلك ، والراجع القول الأول ..

فتبارك الله : تعالى وتقدس شأنه سبحانه ، في علمه الشامل ، وقدرته الباهرة ، « وتبارك » فعل ماض لا يتصرف ، والأكثر إسناده إلى غير مؤنث .. وأحسن الخالقين : نعت الاسم الجليل ، وإضافة أفعال التفضيل محضة ، فتفديده تعريفا إذا أضيف إلى المعرفة على الأصح ، وقيل لا يجوز أن يكون نعما ؛ لأنه نكرة وإن أضيف ؛ ولأن المضاف إليه عوض عن « من » ، فهو إما بدل وإما خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هو أحسن الخالقين ، وتميز أفعال محذوف لدلالة الخالقين عليه أى : أحسن الخالقين خلقا ..

والخلق هنا بمعنى : التقدير ، وهو رصف يطلق على غيره تعالى ، كما في قوله عز قائلًا : « وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ إِذْ نَبَى » (١) ..

وقول زهير :

ولأنت تفرى ما خلقت وبع ض القوم يخاق ثم لا يفري (٢)

ولا يصح تفسيره هنا بالإيجاد، إذ لا خالق بذلك المعنى غيره تعالى... ومعنى حسن خلقه تعالى : إتقانه وإحكامه ، ويجوز أن يراد بالحسن مقابل التقبح ، وكل شيء منه عز شأنه حسن لا يتصف بالتقبح أصلاً من حيث أنه منه تبارك وتعالى ...

الأغراض والمزايا البلاغية : في قوله : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » على القول بأن المراد بالإنسان الجنس على اعتبار أكثر أنواعه ، وبالسلالة : النطفة ، وبالطين : آدم عليه السلام : يكون في الإنسان « من طين » بجاز علاقته الكلية ، حيث أطلق الكل وأريد جزؤه الأكبر ، وفي « طين » بجاز مرسل آخر علاقته اعتبار ما كان .. وفي قوله : « ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » أوثر التعبير بـ « ثم » دون الفاء للدلالة على أن حصوله مما قبله بعيد ، فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخي والبعد الحسى ، لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية مما يستغرب ويستبعد .. وكذا القول في : « ثم خلقنا النطفة علقة » وفي « ثم أنشأناه خلقاً آخر » ، فقد جاءت المعطوفات بعضها بـ « ثم » وبعضها بالفاء للإشارة إلى تفاوت الاستبعادات ، فالمعطوف بـ « ثم » يستبعد حصوله مما قبله . فنزل الاستبعاد العقلي أو الرتبة بمنزلة التراخي والبعد الحسى ، أما المعطوف بالفاء فهو ليس يستبعد .. وفي « جعلناه » لونه بديعى هو الاستخدام ، وذلك إذا أريد

(١) - سورة المائدة الآية ١١٠ .

(٢) تفرى بفتح التاء : تصاح ، ومعنى البيت : أنت تنفذ ما تقدره وتعزم عليه وغيرك يقدر ولا ينفذ ، وهو مثل ، يقال للشجاع ما يفري فريه أحد ، بتشديد الياء ..

بالإنسان آدم عليه السلام، وبالضمير العائد عليه في « جعلناه » أفراد بني آدم الذين تناسلوا منه... فقد استخدم اللفظ بمعنى، وعاد عليه الضمير بمعنى آخر.. كما في قول القائل :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وفي قوله : « في قرار مكين » مجاز عقلي حيث أسند الوصف « مكين » إلى ضمير الرحم وهو للنفطة، فهو مجاز عقلي علاقته إسناد المبنى للفاعل إلى مكانه، كما تقول : طريق سائر ونهر جار، ويجوز أن يكون التمكن وصفا للرحم، لا للنفطة، وعندئذ فلا مجاز ...

وفي قوله : « فخلقنا المضغة عظاما »، قالوا إن معظم المضغة أو أغلبها يخلق عظاما، وعليه ففيها مجاز مرسل علاقته الكلية، وقالوا إن المضغة تخلق كلها عظاما وعليه فلا مجاز في المضغة، وقد جمعت العظام دون غيرها ما في الأطوار، لأنها متغايرة هيئته وصلابة بخلاف غيرها، ألا ترى عظم الساق وعظم الأصابع وأطراف الأضلاع والرأس، وقد قالوا : إن عدة العظام مائة وستة وأربعون عظما .. وفي قوله : « فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم .. » الالتفاتان ، من الغيبة في قوله : « أنشأناه » إلى الخطاب في قوله « إنكم »، ومن التكلم في قوله : « أنشأناه » إلى الغيبة في قوله : « فتبارك الله » . وفي الالتفات الأول تنبيه وإيقاظ وحث على التقوى، والتزود لما بعد الموت، فالانتقال من الغيبة إلى الخطاب، يبنى بهذا المعنى، ويوحى به، ووراء الالتفات الثاني تمكن معان سامية، إذ الالتفات إلى الاسم الجليل يفيد تربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة، من أحكام الألوهية، وللإيدان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وجل، أو لاحظته أن يسارع إلى التكلم به، لإجلاله وإعظاما لشأنه تبارك وتعالى، ولذا كان العطف بالفاء : « فتبارك الله » ...

ولا يخفى عليك حسن النظم، وجمال الرصف، ودقة التعبير القرآني، حيث تتشابه أطراف آيه، ويدل صدورها على أعجازها، ويتجلى ذلك في هذه الآية الكريمة، ولذا ورد أن أكثر من صحاح قد نطق بجحتم الآية: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، قبل أن يسمعا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبل أن يملها على كاتب الوحي ويتسم عليه الصلاة والسلام قائلا: «هكذا نزلت».. وقوله «فتبارك الله أحسن الخالقين»، إطناب بالاعتراض التذييلي، فهي جملة دعائية دلت على تنزيه الله عز وجل وتعظيمه وتقديس شأنه في علمه الشامل وقدرته الباهرة...

وفي قوله: «ثم إنكم بعد ذلك لميتون». ثم إنكم يوم القيامة تبعثون، نلاحظ أن الإخبار بوقوع الموت قد أكد بيان واللام وبجئته اسما «ميتون»، والإخبار بالبعث لم يؤكد هذا التأكيد فقد جاء فعلا «تبعثون»، وأكدت جملته بيان فقط، وذلك على الرغم من أن البعث مما يدفع وينكر، فقد أنكره المشركون، والموت مما لا ينكره أحد: لأنه حقيقة واقعة مشاهدة، وقد علل العلماء ذلك بما يلي:

١ - الاكتفاء في شأن البعث بتقدم ما يغنى عن كثرة التأكيد، حيث تقدم ذكر خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقا آخر يستغرق العجائب، ويستجمع الغرائب، وفي ذلك أدل دليل على حكمته، وعظيم قدرته عز وجل، على بعث الإنسان وإعادته، وأنه سبحانه لن يهمل أمره، ويتركه بعد موته نسيا منسيا، أما تأكيد الموت فإنه لما تضمنت الآية السابقة المبالغة في أنه تعالى قد أحكم خلق الإنسان وأتقنه، بولغ هنا في تأكيد الموت على الرغم من كونه غير منكر؛ لأن المبالغة فيما سبق تقضى استبعاد العقل الموت أشد استبعاد، حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وقد سمع أن الله عز وجل أحكم خلق الإنسان هذا الإحكام، وأتقنه غاية الإتقان..

٢ - بولغ في تأكيد الموت لتماذى المخاطبين في الغفلة ، وإعراضهم عن العمل لما بعد الموت ، فكأنهم نزلوا منزلة المنكرين لذلك ولم يبالغ في الثانية لوضوح أدلة البعث وسطوع براهينه وأنه لو تؤملت تلك الأدلة وتدبرت تلك البراهين ما أنكروا منكر ولا دفع دافع ..

٣ - ويمكن أن يقال : إن شدة كراهة الموت طبعاً ، والتي لا يكاد يسلم منها أحد ، نزات منزلة شدة الإنكار ، فبولغ في تأكيد الجملة الدالة عليه ، وأما البعث فمن حيث أنه حياة بعد الموت لا تكراهه النفوس ، ومن حيث أنه مظنة للشدائد تكراهه ، فلما لم يكن حاله كحال الموت ولا كحال الحياة بل بين بين أكدت الجملة الدالة عليه تأكيداً واحداً ..

وفي تكرار حرف التراخي « ثم » ما يؤذن بتفاوت المراتب ، وينبئ بتباعد الأزمنة بين خلق الإنسان وموته ، وبين موته وبعثه .. والمقصود الأهم بعد بيان خلق الإنسان وتأهله للتكليف بيان بعثه للحساب والجزاء ، ولكن قدم حديث الموت على حديث البعث ؛ لأنه برزخ بين طوره الذي تأهل به للأعمال والتكليف وبين بعثه للجزاء ، فلا بد من قطعه للوصول إلى ذلك .. لماذا لم تذكر حياة القبر؟ وهل السكوت عنها في الآيات يعني عدم وجودها؟ لا يعنى السكوت عن حياة القبر ، أنه لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث ؛ لأنه ليس في ذكر الحياتين ما يدل على نفي الثالثة ، وهي حياة القبر ، كما أنك لو ذكرت ثلثي ما عندك ، وطويت ذكر ثلثه ، لم يكن دليلاً على أن الثلث ليس عندك ، وأيضاً لأن الغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة : الإنشاء والإماتة والإعادة ، والمطوى ذكرها وهي حياة القبر من جنس الإعادة (١) ..

معاني الآيات الكريمة : لما ذكر سبحانه وتعالى في أول السورة صفات

السعداء المفلحين الفائزين ، وحث عباده على التحلى بها ، ووعدهم الفردوس ، عقبه عز وجل بذكر مبدأ العباد ، ومآل أمورهم ، ولإبراز قدرته تعالى التي تجلت في خلق الإنسان ، وإظهار مراحل تكوينه العجيبة البديعة ، فينشأ الإنسان ، ويحيا حياته التي يأتي بعدها الموت ، ثم البعث للحساب والجزاء ، وفي هذا حث للعباد على النظر والتأمل ، فيقبلوا على عبادته ، وشكر نعمته ، ويتخلقوا ويتحلوا بالصفات السامية ، التي بدأت بها السورة الكريمة . . . ففى هذه الآيات يقسم المولى عز وجل ، أنه خلق الإنسان من سلالة من طين ، أى : خلق آدم عليه السلام من صفوة الماء والتراب ، من خلاصة الطين الذى هو الماء والتراب

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَفْتَشِرُونَ » (١)

خلقه الله من تراب بل فصار طينا ، فلما أنتن صار حمأ مسنونا ، فلما يبس صار صلصالا ، كما أخبرت بذلك الآيات الكريمة : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ .. »

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » (٢)

« وَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » (٣) .. « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » (٤) .. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والحبيث والطيب وبين ذلك ، .. ثم خلق تبارك وتعالى ذريته من ماء مهين : « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » (٥) .. « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَمُ الْقَادِرُونَ » (٦) .. خلقنا سبحانه وتعالى

- | | |
|--------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة الروم آية ٢٠ . | (٢) سورة ص آية ٧١ . |
| (٣) سورة الحجر آية ٢٦ . | (٤) سورة الرحمن آية ١٤ . |
| (٥) سورة السجدة آية ٨٧ . | (٦) سورة المرسلات آية ٢٠-٢٣ . |

من نطفة وضعت في قرار مكين ، ثم خلق النطفة علقة أى : دما جامدا ، صير سبحانه وتعالى النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب علقة حمراء ، ثم خلق العلقة مضغة ، أى قطعة لحم قدر ما يمضغ ، لا استبانة ولا تمايز فيها ، ثم خلق المضغة عظاما ، قيل خلق المضغة كلها عظاما ، ثم كسى عز وجل هذه العظام لحما ، خلقه من دم في الرحم ، وقيل خلق أغلب المضغة وموظمها عظاما ، ثم كسى تلك العظام لحما ، من لحم المضغة الذي تبقى بعد خلق العظام ، يمد على العظام حتى يسترها ، وصدق الله العظيم : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُعْرَفُونَ ﴾ (١).

وفي الصحيحين : « إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : رزقه وأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار ويدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة ويدخلها » .. وفي الصحيحين أيضا : « إن الله وكل بالرحم ملكا فيقول : أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة ، فإذا أراد الله خلقها قال : أى رب ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد ؟ فما الرزق والأجل ؟ قال : فذلك يكتب في بطن أمه » ، فسبحانك ربى أنت الخالق القادر وتبارك الله أحسن الخالقين .. وقوله سبحانه وتعالى : « ثم أنشأناه خلقا آخر » أى : مبينا للخلق الأول مبينة ما أبعد ما مبينة ، حيث جعله حيوانا وكان جمادا ، وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم ، وبصيرا وكان أعمى ، وأودع باطنه وظاهره ، بل كل

عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة ؛ وغرائب حكمة ،
لاتدرك بوصف الواصف ، ولا تبلغ بشرح الشارح ، والله در القائل :
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

قالوا : الخلق الآخر : الروح والمراد بها النفس الناطقة والذي يتبادر من
إنشاء الروح خلقها ، وظاهر العطف ثم يقتضى حدوثها بعد حدوث البدن وهو
قول أكثرهم ، وقيل إنشاؤها نفخها في البدن أى : جعلها متعلقة به أو سارية
فيه ، وإذا أريد بالروح الروح الحيوانية فلا كلام في حدوثها بعد البدن وسريانها
فيه ، وقيل : الخلق الآخر القوى الحساسة ...

وقد احتج أبو حنيفة بهذه الآية على أن من غضب بيضة فأفرخت عنده ،
يضمن البيضة ولا يرد الفرخ ، لأنه خلق آخر سوى البيضة .. وقيل بل يضمن
الفرخ باعتباره جزءا من المخصوب ، لا لكونه عينه أو مسمى باسمه ..
وفي المسألة خلاف يستقصى في كتب الفقه ...

وتختتم الآية الكريمة بتقديس الله سبحانه وتعظيم شأنه : « فتبارك الله
أحسن الخالقين » ، روى أن عبد الله بن سعيد بن أبي سرح كان يكتب الوحي
لرَسُول - صلى الله عليه وسلم فأملى عليه : « ولقد خلقنا الإنسان ، حتى إذا
بلغ عليه الصلاة والسلام : « ثم أنشأناه خلقا آخر » ، نطق عبد الله بقوله تعالى :
« فتبارك الله أحسن الخالقين » قبل إملائه ، فقال عليه الصلاة والسلام :
« هكذا نزلت » ، فقال عبد الله : إن كان محمد نبيا يوحى إليه ، فأنا نبي يوحى
إلى ، وارتد ولحق بمكة ، ثم أسلم بعد الفتح ، وقيل مات كافرا ، وطعن بعضهم
في صحة هذه الرواية بأن السورة مكية ، وارتداده كان بالمدينة ، كما تقتضى
الرواية ... ويدفع هذا الطعن بأحد أمرين :

الأول : أن تكون هذه الآية مدنية ، ومثلها آية الزكاة ، والآيات

التي ذكرناها في أول حديثنا عن السورة ، فـكون السورة دكية مبنى على الأكثر الغالب ..

الثاني : أن تكون الآية نزلت بمكة ، واستكبتها النبي صلى الله عليه وسلم إياه بالمدينة ، ويؤيد هذا أن هذه الموافقة رويت أيضا عن عمر بن الخطاب ، وعن معاذ بن جبل رضى الله عنهما ، وليس هنالك ما يمنع من أن يكونا قد نطقا بختام الآية عند سماعهما إياها من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونطق به عبد الله عندهما أملاه الرسول إياها بالمدينة ...

وبعد أن أبرزت الآيات وجلت قدرة الله الباهرة، التي أبدعت خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وعلى هذه الصورة العجيبة التي نطقت بها الآيات ، أكد سبحانه وتعالى أن هذا الإنسان الذي أبدع الله صنعه ، وأحسن خلقه ، سيفنى ويموت ، ثم يبعث للحساب والجزاء : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، وهذا التأكيد تنبيه للإنسان إلى غفلته ، وتذكير له وإيقاظ ، حتى يعمل لما بعد الموت من حساب وجزاء فانه جل جلاله باعته وسائله ومجازيه عما قدم من عمل إن خيرا نخير وإن شرا فشر » ثم إنكم يوم القيامة تبعثون .. نعوذ بالله تعالى من الغفلة وسوء المنقلب ، ونسأله عز وجل العمل الصالح وحسن العاقبة ..

* * *

« وَاقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْسَكْنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ . فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِللَّاكِلِينَ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » .

اللغة والإعراب : ولقد : اللام واقعة في جواب قسم محذوف ، والواو إما واو القصة وإما واو الاستئناف والجملة بعدها مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون إليه بعد بيان خلقهم - كما مر في قوله : « ولقد خلقنا الإنسان .. فوقكم : في جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم ، لأن تلك النسبة - نسبة الفوقية إليهم - إنما تعرض بعد خلقهم .. الطوائق : جمع طريقة إما بمعنى مطروقة كذبيحة بمعنى مذبوحة ، وسميت كذلك لأنه طورق بعضها فوق بعض أى : طوبق ، من طرق النعل والخوافى إذا وضع بعضها فوق بعض ، قال الشاعر :
وخيل يطابقن بالدارعين طباق الكلاب يطآن الهراسا (١)

والعرب تسمى كل شيء فوقه مثله طريقة ، قال تعالى : « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَيِّنَاتٍ (٢) أَى : بعضها فوق بعض من غير مماسة .. وإما جمع طريقة بمعناها المعروف ، وسميت السموات بذلك لأنها طرائق الملائكة - عليهم السلام - في هبوطهم وعروجهم لمصالح العباد ، وقيل : هي الأفلاك ، لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها .. وقال ابن عطية : يجوز أن تكون الطرائق بمعنى المسوطات ، من طرقت الحديد إذا بسطته وهذا لا ينافي القول بكرويتها .. وقيل سميت طرائق لأن الله عز وجل أودع في كل سماء ما لم يودعه في الأخرى ..

والخلق : قالوا : المراد به جميع المخلوقات التي من جملتها السموات السبع ، والمعنى : وما كنا عن الخلق غافلين أى . مهملين أمره بل نفيض على كل ما تقتضيه الحكمة ، فنحفظ السموات أن تسقط على الأرض ومن عليها قبلهم ، ونحفظ الأرض أن تميد بهم ، ونحفظهم أن يهلكوا بسبب من الأسباب

(١) الدارعون : الفرسان قد تدرعوا أى : لبسوا الدروع ، والهراس : حطام

الشوك ..

(٢) سورة الملك الآية ٣ .

المستأصلة لهم .. ويجوز أن يراد بالخلق: الناس ، والمعنى : أنا خلقنا السموات لأجل منافعهم، ولسنا غافلين عن مصالحهم وما يعيشون به ، «وأل» على الوجهين للاستغراق ، وقيل المراد بالخلق : المخلوق المذكور وهو السموات السبع ، والمعنى : وما كنا عنها غافلين بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندير أمرها ، ودأل ، عل هذا القول للعهد ، وإفراد الخلق في سائر الأوجه ، لأنه مصدر في الأصل ، ولأن المتعدد عنده تعالى في حكم الشيء الواحد .. «وأنزلنا من السماء ماء» : أى من جهة العلو أو من السحاب، وقيل السماء بمعناها المعروف ولا يعجز الله تعالى شيء ، وهذا من جملة ما امتن الله سبحانه وتعالى به على خلقه ، والمراد بالماء : ماء المطر ، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان ، ومن جملة ذلك مياه الأنهار النازلة من السماء ، ومياه الآبار والعيون المستخرجة من الأرض ، فإن أصلها من ماء السماء ، وقيل : أراد سبحانه وتعالى في هذه الآية : الأنهار الأربعة سيحان وتيجان والفرات والنيل ، ولا وجه لهذا التخصيص ، وقيل المراد به الماء العذب دون المالح . ولا وجه لذلك أيضا ، فليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء ... بقدر : بتقدير منا أو بمقدار يكون به صلاح الزرع والثمار ويسلمون معه من المضرة ، فإنه لو كثر لكان به هلاكهم .. ومثله قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِفُهُ وَمَا نُنزَلُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ » (١) .. ويهرب الجار والمجرور « بقدر » إما صفة ماء أى : وأنزلنا ماء متلبسا بمقدار ما يكفيهم في حاجتهم ومصالحهم أو متلبسا بتقدير لا يبق منا ما ينفعهم ولا يضرهم ، وإما صفة لمصدر محذوف أى : إنزالا متلبسا بذلك ، وإما حالا من الضمير في « أنزلنا » أى . وأنزلنا ماء مقدرين ما ينفعهم ويصلحهم .. « فأسكنناه في الأرض » : جعلناه مستقرا فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه ، كالماء الذى يثبت ويبقى فى المستنقعات والغدران والينابيع ونحوها ، قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ..) (٢) ..

« على ذهاب به » أى : على إزالته ومحوه بإخراجه عن المائية ، أو بتغويره بحيث يتعذر استخراج ، أو بأى وجه من وجوه الذهاب به ، وطريق من طرقه ، وفيه ليدان باقتدار المذهب جل وعلا ، وجملة : « وإنا على ذهاب به لقادرون » فى موضع نصب على الحال من فاعل « أنزلنا » وهو عائد إلى لفظ الجلالة .. « فواكه » تنفكهن بها وتطعمون منها وتنعمون زيادة على المعتاد من الغذاء الأصلي .. والباء فى قوله « فأنشأنا لكم به » للسببية ، وقيل إنها بمعنى « عند » ، والمعنى : أوجدنا بذلك الماء أو عنده جنات من نخيل وأعناب ، وخص النوعين : النخيل والأعناب ، بالذكر دون غيرهما فى هذه الآية الكريمة ، لكثرة الانتفاع بهما ، ولاسيما فى الحجاز والطائف والمدينة ، ولأنهما أشرف الأشجار ثمرة ، وأطيبها منفعة وطعما ولذة .. « ولكم فيها فواكه كثيرة » قالوا المعنى : لكم فى هذه الجنات فواكه من غير العنب والنخيل ، أو لكم فى هذين النوعين خاصة دون غيرهما فواكه كثيرة ؛ لأنهما أنواع مختلفة متفاوتة فى اللون والطعم ...

وقد اختلف الفقهاء فى لفظ الفاكهة علام يطلق ، وأحسن ما قيل أنه يطلق على الثمرات التى يأكلها الناس وليست بقوت لهم ولا طعام ولا إدام ، والعرف هو الفصيل فى ذلك فقد يعد الشيء فاكهة فى عرف قوم ولا يقال له فاكهة فى عرف آخرين .. و« من » فى قوله : « ومنها تأكلون » ابتدائية ، وقيل إنها تبعيضية ، والضمير يرجع إلى الجنات ، أو إلى النخيل والأعناب ، والأكل مراد به معناه الحقيقى ، ويجوز أن يكون مجازا أو كناية عن التعيش ، والمعنى : ومن ثمرات الجنات وزروعها تأكلون ، على أن « من » ابتدائية ، أو ومن بعض ثمارها وزروعها تأكلون ، على أن « من » تبعيضية ، أو ومن ثمار النخيل والأعناب تأكلون ، على أن الضمير يرجع إلى النخيل والأعناب ... أو ومنها ترزقون ، وتحصلون معايشكم ، من قولهم : فلان يأكل من حرفته أو ضيعته أو تجارته ... و« شجرة » المراد بها شجرة الزيتون ، وهى التى يخرج منها الدهن ، وقد ذكرها عز وجل عقب ذكر النخيل والأعناب امتنانا على عباده ، لأنها

لا يتعدها أحد بالسقي ، ولأنها من أكرم الشجر ، وأكثرها بركة ، وأعمها نفعاً ... وهي منصوبة عطفاً على « جنات » وقرىء بالرفع على أنها مبتدأ خبره محذوف والتقدير : وما أنشئ لكم شجرة ... وهي شجرة تعمر كثيراً قيل تعمر ألف عام وقيل ثلاثة آلاف ، وقالوا إنها أول شجرة تنبت بعد الطوفان ، وهي تنبت في سائر البقاع وأكثر ما تكون في المواضع التي زاد عرضها على طولها ، واشتد بردها ، وكانت جبلية ذات تربة بيضاء أو حمراء ، وتخصيصها بالخروج من طور سيناء ، إما لأنه المنشأ الأصلي لها ، وإما لتعظيمها فهو مدح لها باعتبار مكانها .. وقد وصفها الله عز وجل بالبركة في قوله تعالى : « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ... » (١) ..

« طور سيناء » قالوا : هو جبل بيت المقدس بفلسطين من أرض الشام ، وقيل هو بين مصر وأيلة ويقال له اليوم العقبة ، وهو الجبل الذي ناجى عنده موسى - عليه السلام - ربه جل وعلا ، والطور في كلام العرب : الجبل ، وقيل هو مما عرب من كلام العجم ، واختلف في معنى سيناء فقيل هو الحسن ، وقيل المبارك ، وذهب الجمهور إلى أنه اسم للجبل كما تقول : جبل أحد ، يقال : طور سيناء وطور سينين ، وقيل : سيناء حجر بعينه أضيف للجبل إليه لوجوده عنده ، وقيل هو كل جبل يحمل الثمار ، وقرىء بفتح السين وبكسرهما ، وزعم الأخفش أنه أعجمي ، فهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة أو للعلمية والتأنيث ، وقيل إن طور سيناء أو طور سينين اسم للجبل مركب تركيباً إضافياً كما مرى القيس ، أو تركيباً مزجياً كعبلك ...

« تنبت بالدهن » : الباء للملابسة والمصاحبة ، كما تقول : جاء فلان بثياب السفر ، وهي متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ضمير الشجرة ، أى : تنبت متلبسة

بالدهن ، وهو عصارة كل ما فيه دسم ، والمراد هنا الزيت ، وهذا مدح للشجرة باعتبار ما هي عليه في نفسها ، بعد مدحها باعتبار مكانها .. وقرىء : « تنبت » بضم التاء وكسر الباء ، وفيها وجوه : أحدها أن أنبت بمعنى نبت ، كما في قول زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل (١)

أى : حتى إذا نبت البقل ، فأنبت بمعنى : نبت ..

والثانى : أن مفعوله محذوف أى : تنبت زيتونها وفيه الزيت ، والجار والمجرور على هذا فى موضع الحال من المفعول المحذوف أو من الضمير المستتر فى الفعل ...

والثالث : أن الباء زائدة كما فى قوله تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » (٢) .. وقرىء تنبت مبنيا للمفعول ، والجار والمجرور عندئذ فى موضع الحال من نائب الفاعل وهو الضمير المستتر العائد إلى الشجرة ... « وصبغ للآكائين » : معطوف على الدهن ، أى : تنبت بالشئ الجامع بين كونه دهنا يدهن به وكونه صبغا يؤتدم به ، وكل إدام يؤتدم به يقال له : صبغ وصباغ ، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب وشبهه الإدام به ، لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ ، حيث يغمس فيه ، ويلون به ، كالخل والزيت وجملتا : « تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ ، صفتان « لشجرة » ... « وإن أنعم فى الأنعام لعبرة » : بيان للنعم الواصلة إليهم من جهة الحيوان ، إثريان النعم الفائضة من جهة الماء والنبات ، والنعمة الواصلة إليهم من جهة الحيوان ، ترجع إلى أسرين : أولهما : كونها فى نفسها نعمة ينتفع بها على وجوه شتى ، ثانيهما : أنها عبرة لا بد من أن يعتبر بها ، ويستدل بأحوالها على عظيم قدرة الله عز وجل ...

(١) قطينا : القطين : المقيمون فى الموضع لا يكادون يرحونه وهو اسم جمع

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٥ .

وكذا القاطنة ..

قالوا : والمراد بالأنعام في الآية الإبل خاصة، لأنها هي المحمول عليها في العادة، ولأنه قرن بها بالفلك وهي سفائن البر، كما أن الفلك سفائن البحر، ولأنها موطن العبرة، قال تعالى : « أَوَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »^(١) .. ولا أرى وجها لهذا التخصيص، لأن ما ذكر من أوجه الانتفاع لا يقتصر على الإبل، وكذا العبرة والعظة ليست مقصورة على الإبل ...

قال تعالى : « وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا نِفَاةً وَمَذَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالنَّحْلِ إِلَّا لِيَشِيقَ الْأَنْفُسَ إِنْ رَزَقْتُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »^(٢) ، وقال عز قائلنا : « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَقَاعًا إِلَىٰ حِينٍ »^(٣) أي : ومن أصواف اللغيم وأوبار الإبل وأشعار العز، فحمل الأنعام على الإبل خاصة لا يناسب مقام الابهتان ولا يتلاءم مع سياق الآيات ...

« نسقيكم مما في بطونها » : المراد بما في بطونها إما الألبان، فتكون « من » تبعيضية، والبطون أريد بها الأجواف، لأن اللبن في الضروع، وإما العلف الذي يتكون منه اللبن فتكون « من » ابتدائية، والبطون على حقيقتها ...

وعلى كلا الوجهين فإن الضمير في « بطونها » يعود إلى الأنعام باعتبار نسبة ما للبعض إلى الكل .. « وعليها وعلى الفلك تحمّلون » : الفلك : السفن، والمعنى تحمّلون أنتم وأثقالكم على الأنعام برا، وعلى الفلك بحرا ... قالوا الضمير في

(٢) سورة النحل الآية ٥ - ٨ .

(١) سورة الناشية الآية ١٧ .

(٣) سورة النحل الآية ٨٠ .

« عليها » يعود إلى الأنعام باعتبار نسبة ما للبعض إلى الكل ، لأن المراد : الإبل ، إذ هي سفائن البر ، ولا أرى وجها لهذا التخصيص أيضاً ، لأن الحمل برا ليس مقصوراً على الإبل ، كما رأينا في الآيتين الكریمتین : « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا تَبَاغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَهْوفٌ رَّحِيمٌ . وَالظِّلِّ وَالْبَعَالِ وَالْحَمِيرِ اتَّزَكَبُوها وَزِينَةً وَبَخْلًا مَا لَا تَعْمَلُونَ ، (١) .

الأغراض والمزايا البلاغية : في قوله : « وما كنا عن الخلق » ، « وأنزلنا من السماء » وضع للمظهر موضع المضمرة إذ تقدم ذكر الخلق والسماء ، فكان الأصل : « وما كنا عنه » ، وأنزلنا منها ، والسر البلاغى لوضع المظهر موضع المضمرة في الموضوعين ، هو الاعتناء بشأن المظهر ، وإبراز القدرة والمنة ، ولأن الإنزال من السماء لا يعتبر فيه كونها طرائق ، بل مجرد كونها جهة للعلو ... وفي الخلق مجاز مرسل علاقته التعلق الاشتقاقى ، حيث أطلق المصدر وأريد اسم المفعول والمعنى : « وما كنا عن المخلوقات أو الخلائق ...

وقدم الجار والمجرور على المفعول في قوله : « وأنزلنا من السماء ماء » للاعتناء بشأن المقدم ، والتشويق إلى المؤخر ... وفي لفظ « السماء » مجاز مرسل علاقته المجاورة ، إذ الماء ينزل من جهتها ، أو من السحاب الكائن في جهتها ، وقيل المراد بها معناها المعروف فلا مجاز ، والله عز وجل لا يعجزه شيء ... وتكبير الذهاب في قوله : « وإنا على ذهاب به لقادرون » يوصى إلى كثرة طرقه وتعدد وجوهه ، ويؤذن باقتدار المذهب جل وعلا ، وأنه إذا أراد لا يعجزه شيء ، وهذه الآية أبلغ في الإيعاد من قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْعُمُ إِنَّ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ » (٢) ، وإياك أن تفهم من هذا أن القرآن الكریم يفضل بعضه بعضاً ، ليس هذا مراداً ، إذ كل بليغ

(٢) سورة الملك آية ٣٠ .

(١) سورة النحل آية ٧-٨ .

ومعجز في موطنه وسياقه ، والذي نريده أن المقام هنا ، اقتضى شدة المبالغة ، إذ هو اتعداد آيات الآفاق والأنفس على وجه يتضمن الدلالة على القدرة والرحمة ، مع كمال عظمة المتصف بهما ، ولذا ابتدء بضمير العظمة مع التأكيد ، بخلاف ما هناك فإنه تميم للحث على العبادة والترغيب فيها ، فالمقام هناك لا يقتضى شدة المبالغة ...

وقد ذكر العلماء عدة أوجه لتكون هذه الآية أبلغ وأقوى في الإيعاد من تلك أهمها :

- ١ - الإيعاد هنا على الجزم وقد أكد يان واللام « وأنا على ذهاب به لقادرون » ، وهناك على الفرض والتقدير ..
- ٢ - الذهاب هنا في مطلق الماء المنزل من السماء ، والغائر هناك ماء مضاف إليهم « ماؤكم » ..
- ٣ - أن الغائر قد يكون باقيا بخلاف الذهاب ..
- ٤ - ما في تنكير « ذهاب » من المبالغة ..
- ٥ - إسناد الذهاب هنا إلى مذهب : « وأنا على ذهاب به .. » بخلاف هناك حيث قيل : « أصبح ماؤكم غورا » ..

٦ - التأكيد يان واللام وجمع « قادرون » ، والتعبير بضمير العظمة « أنا » ، والجار والمجرور « به » ، وتقديم ما فيه الإيعاد « على ذهاب » ، وخلو التعبير من التعقيب بما هو مطمع ، كالإتيان هناك .

٧ - الكلام هنا جار على الإخبار ، حيث يخبر جل وعلا عن نفسه ، وهناك أمر للغير « قل » .. والخطاب هنا عام وهناك خصص للكفرة ...

في قوله « ومنها تأكلون » ، قد يكون الأكل حقيقة ، وأنهم يأكلون من ثمار الجنات ولحوم الأنعام ، وقد يكون مجازا مرسلا أى : تأكلون وترزقون

بسبب العمل بها ، من قولهم : فلان يأكل من حرفته أى : بسببها ، فهو مجاز مرسل علاقته السببية ... وجاز أن يكون التعبير « ومنها تأكلون » كناية عن التعيش والارتزاق ... وفي قوله : « تنبت بالدهن » على قراءة ضم التاء وكسر الباء ، مجاز عقلي حيث أسند النباتات إلى الشجرة ، والمنبت هو الله تبارك وتعالى .. وفي « الدهن » مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون ، لأن المنبت هو الثمرة التي يستخلص منها الدهن ...

وفي قوله : « وصبغ » استعارة إذ الصبغ للثوب فاستعير هنا لاختلاط الدهن بالخبز ؛ لأن الخبز يغمس في الدهن ويلون به للاتخدام .. وبين الجملتين في قوله : « وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها » كمال اتصال ، إذ الجملة الثانية تفصيل وإيضاح وبيان للجملة الأولى ، والتأكيد في الأولى ينبيء بغنائهم عن هذه المنة وعن تدبرها وحسن شكرها ، فتمد نزولوا لغنائهم منزلة المنكر لتلك النعمة فأكد لهم الكلام « وإن لكم في الأنعام لعبرة » ...

وفي قوله تعالى : « .. في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولـكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعالما .. » تجد أن هذه الضمائر ، « بطونها .. فيها .. منها .. » تعود إلى الأنعام بمعان مختلفة ، ففي « بطونها » يعود إليها بمعنى الإناث منها دون الذكور ، وفي « فيها ومنها » بمعناها العام ، وفي « وعالما » بمعنى ما يركب منها أى : البعض ، ويعرف هذا في البديع بالاستخدام ، حيث يذكر اللفظ بمعنى ، ويعود إليه الضمير أو الضمائر بمعان أخرى ، وفيه من التنبيه والإيقاظ ما لا يخفى ، ولك أن تجعل في الضميرين : « بطونها وعالما » مجازا مرسل علاقته الكلية حيث أطلق الكل وأريد البعض ...

وفي « البطون » على اعتبار أن المسقى اللبن ، لا العالف الذي يتكون منه اللبن : مجاز مرسل علاقته المجاورة ، حيث أطلق البطون وأراد الضروع ...
وفي تنكير المتافع ووصفها بالكثرة ما يدل على تعددها وتنوعها ، وقد

صرح بثلاث منافع ، منها منفعة قبل هذا الإجمال وهي السقي بما في بطونها ، ومنفعتان بعده وهي الأكل والركوب ، وفي هذا التصريح تنويه بشأن تلك المنافع الثلاث ، وتنبية إلى عظم الانتفاع بها ...

معاني الآيات الكريمة : بعد أن بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة خلق الإنسان ، عقبه ببيان خلق ما يحتاج إليه ، فذكر عز وجل أنه خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، وكثيرا ما يذكر سبحانه خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان : « تَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ »^(١) ، ... خلقها تبارك وتعالى وزينها ، زين السماء الدنيا بمصاييح ، وجعلها رجوما للشياطين ، وحث على النظر والتأمل في عجائب خلقه ، وبدع صنعه : « قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »^(٢) . « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ إِنَّهُمْ لَأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا »^(٣) ، وهو سبحانه وتعالى عليم بما خلق : « وَبَعَلَّمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا أَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »^(٤) ، ليس بما قل عن خلقه ، « وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ »^(٥) . أنزل من السماء ماء بقدر ، لا قليلا فلا يكتفى ولا كثيرا فيفسد ويهلك ، أنزله وسلكه ينابيع في الأرض وجعله قاراها فتنتفع به البلاد والعباد ، وما فعل ذلك سبحانه إلا رحمة بالعباد ، وإسباغا لنعمه على خلقه ، ولو شاء لذهب بالماء ، بأى وجه من وجوه الذهب والإسناك ، يمنع الغيث .. يضره

(٢) سورة يونس آية ١٠١

(١) سورة غافر آية ٥٧

(٤) سورة الأنعام آية ٩

(٣) سورة الطلاق آية ١٢

(٥) سورة الحج آية ٦٥

الى السباخ والقفار والبرارى .. يجعله أجاجا .. ولكنها الرحمة والمنة، وبهذا الماء أنشأ الله تبارك وتعالى الجنات، من النخيل والأعناب، ومختلف الزروع والأشجار، « بُنِيَتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ » (١) وأنشأ به شجرة الزيتون المباركة، التي تخرج من طور سيناء، تلك البقعة المباركة، حيث كلم الله موسى تسليماً، وهذه الشجرة تنبت بالدهن، وصنع للأكلين ...

نعمة تلو نعمة، ومنة بعد منة، يقول عليه الصلاة والسلام: « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة»، ثم يذكر سبحانه وتعالى ما فى الأنعام من عبدة ومنافع: « وإن لكم فى الأنعام لعبرة .. » « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَمَا خُلِقَتْ » (٢) ومنافع الأنعام للعباد لا تحصى، ولذا قال سبحانه: « ولكم فيها منافع كثيرة »، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين، ويأكلون من لحومها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويتخذون أثاثا ومتاعا إلى حين، ويركبون ظهورها: « لِيَسْتَعْمُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » (٣)، ويحملون عليها الانتقال إلى البلاد الغائية « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْفَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (٤)، ولما ذكر سبحانه انتفاع العباد بالأنعام، التى من جهلتها ركوبها، والانتقال عليها برا، عطف عليها للفلك التى تحملهم بحراً « وعليها وعلى الفلك تحملون » لأنه تكريم للإنسان، وامتنان وإسباغ للذمم « وَأَقْدَرْنَا مِنْ أَدَمَ وَحَمَلْنَاكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا

(٢) سورة الفاشية الآية ١٧ .

(١) سورة النحل الآية ١١ .

(٤) سورة النحل الآية ٧ .

(٣) سورة الزخرف الآية ١٣ .

تَفْضِيلًا»^(١)، فينبغي على الإنسان أن يعُدبر تلك الفعم ، وأن يشكر الله عليها ، ويحسن جوارها ، حتى تدوم وتزداد : « أَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ . وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ »^(٢) .

* * *

« وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ الْعِلْمَ لِقَوْمٍ يُؤْتُونَ السَّلَامَ . وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَرَبُّوهُ بِهِ حَتَّى حِينٍ . قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتَنِي . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَنَارَ الْعَنُورِ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ ذَلِمَهُ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ . فَإِذَا اسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ . إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ » .

اللغة والإعراب : أرسل : الإرسال في اللغة : التوجيه والاسم منه : الرسالة، والرسل في الشرع من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه، والفرق بينه وبين النبي أن النبي لم يؤمر بتبليغ .. ونوح عليه السلام أول رسول أرسل إلى أهل الأرض بعد آدم عليهما السلام ، قالوا : ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثلها لقي نوح إلا نبي قتل ، ولعل هذا ما يفسر لنا سبب دعائه عليهم :

« رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دِيَارًا »^(١) ، وسمى نوحا لكثرة ما نوح ، وكان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام ، قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : وكان أول ما عبت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا ، فبنى قومهم مساجد ، وصوروا صورهم فيها ليتذكروا أحوالهم وعبادتهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور ، ثم يتبادى الزمان عبثوا تلك الأصنام ، وسموها بأسماء أولئك الصالحين : « وَدَا وَسُوعَا وَأَيُّوبَ وَيَعْقُوبَ وَأَسْرَأَ » ، فأرسل الله تبارك وتعالى إليهم نوحا يأمرهم بعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام^(٢) ..

وجملة : « لقد أرسلنا نوحا » واقعة في جواب قسم مقدر .. كما مر في « ولقد خلقنا الإنسان .. ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق .. » .

والقوم : الجماعة من الرجال والنساء معا ، أو الرجال خاصة ، أو تدخله النساء على التبعية ، ويجمع على أقوام ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه .. « من إله غيره » : « إله » مبتدأ خبره لكم ، أو محذوف و « من » زائدة ، و « غير » بالرفع صفة لإله باعتبار محله ، وقضى بالجر اعتباراً للفظ « إله » ، والمعنى : ما لكم إله غيره ، أو ما لكم في الوجود إله غيره ..

والإله . الله عز وجل ، وكل ما اتخذ من دون الله معبودا إله عند متخذه ، والجمع : آلهة ، والآلهة : الأصنام ، سميت بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحقق لها ، وأسماء العرب تتبع اعتقادهم ، لا ما عليه الشيء في نفسه ، وأصل الإله : من أله بكسر اللام يأله بفتحها ، أى : تحير ، فالعبد إذا وقع في عظمة الله وجلاله ، وغير ذلك من صفات الربوبية ، وصرف عقله إليها ، أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد ، وعندئذ يقال له : أله يأله ، أى تحير^(٣) ..

(١) سورة نوح الآية ٢٦ . (٢) انظر مختصر ابن كثير ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) انظر لسان العرب مادة أله ص ١١٤ .

« أفلا تتقون ، الهزمة لإنكار الواقع واستمخاحه، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى : أتعرفون ذلك أى : مضمون قوله « بالكم من إله غيره » فلا تقون عذابه أو زوال نعمه، أو ألا تلاحظون فلا تقون ، لأنكار الأمرين معا عدم الملاحظة وعدم التقوى ، وأرى أن المنة كبر هو مدفوعول الهزة تسمى هو معنى الفاء ، أى ترتب عدم التقوى على معرفتهم أنه ليس لهم إله غير: (١) ...

والتقوى : اسم والفعل : اتق وتوقى ، يقال : توقيت الشيء واتقيته أى : حذرتة .. ووقاه الله وقيا ووقاية أى : صانه وستره وحماه .. ومفعول « تقون ، محذوف والمعنى : أفلا تخافون أن تركوا عبادة ربكم الذى لا يستحق العبادة غيره وليس لكم إله سواه ، أو أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خولكم من النعم ويزيلها ، أو أفلا تعلمون أنفسكم عذابه الذى تقتضيه ذنوبكم ومعاصيكم ..
الملا : أشرف القوم ووجههم ورؤسائهم ومقدموهم ، وسهوا بذلك لأنهم ملاء بما يحتاج إليه ..

والكفر : نقيض الإيمان ، يقال : كفر بالله يكفر كفرا وكفورا وكفرانا ، ويقال : كفر النعمة أى : جحدها فلم يشكرها ، وكفر نعمة الله وكفورها أى جحدها وسترها ..

التفضل : طلب الزيادة والفضل وهو كناية عن السيادة ، كأنهم قالوا : يريد أن يسودكم ويتقدمكم بادعاء الرساله مع كونه بشر امثلكم .. و«الذين كفروا» صفة للملا ، قيل المراد بها ذمهم والإيذان بكال عراقتهم فى الكفر دون التمييز عن أشرف آخرين آمنوا ، إذ لم يؤمن به أحد من أشرفهم ، كما يفصح عنه قوله تعالى : « وَمَا تَزَكَّ أَيْمَانُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاخِلْنَا » (٢) ..

(١) انظر أساليب الاستفهام فى القرآن ص ٣٤ .

(٢) سورة هود آية ٢٧ .

وقيل يصح أن يكون المراد بها تمييزهم ، وما في آية هود ، إنما هو على عل زعمهم ، أو لقلة المتبعين له من الأشراف . . . «بشر» البشر : الخلق، يطلق على الذكر والأنثى وعلى الواحد والاثنين والجمع ، يقال : هو بشروهي بشروهما بشروهم بشر ، قيل : لا يثنى ولا يجمع ، وقيل قد يثنى وقد يجمع ، وفي التنزيل : « أَفَأُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ »^(١) والجمع أشار (٢) . وقوله : « مثلكم » تأكيد لبشريته عليه الصلاة والسلام ، وجملة « يريد أن يتفضل عليكم » صفة لبشر ... « ما سمعنا بهذا » : قالوا في تحديد المشار إليه أقوالا أهمها :

١ - أن يكون المشار إليه كلامه ، أى : ما سمعنا بهذا الكلام . .

٢ - أن يقدر مضاف محذوف ، والمعنى : ما سمعنا بمثل هذا الكلام في آياتنا ، أى : في الأمم الماضية ، وسبب تقدير المضاف : أن عدم السماع بكلام نوح في الأولين لا يصلح للرد عليه ..

٣ - أن يكون المشار إليه نوحا عليه السلام ، والمعنى : ما سمعنا بخبر نبوته أو بأمره ، ولو كان نبيا لكان له ذكر في آياتنا الأولين .

وقيل : الباء زائدة ، والمعنى : ما سمعنا هذا كائنا في الماضين ... « جنة » : يقال جن الشيء يجنه جنة أى : ستره ، وكل شيء ستر عنك فقد جن ، وجنة الليل وجن عليه وأجنه : ستره . وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار ، والجنين لاستتارهم في بطن أمه . والجنون لاستتاره العقل ، والجنة والجنون بمعنى واحد . .

والمراد في الآية الكريمة : « إن هو إلا رجل به جنة » ، أى . جنون أو جن يخبئونه فيقول ما يقول ، ولذا قالوا . « فارتبصوا به حتى حين » ، أى . احتملوه واصبروا عليه وانتظروا حتى يستبين أمره ، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه

(١) سورة المؤمنون آية ٤٧ .

(٢) انظر لسان العرب مادة بشر .

الدعوى ، أو يذهب عنه الجن ، أو يموت فتستريحوا منه ، فالتربص : الانتظار ، يقال : تربص بالشئ ربصا ، وتربص به تربصا أى : انتظر به خيرا أو شرا ، وليس المراد بالحين وقتا بعينه إنما هو كقولهم : دعه إلى يوم ما ..

والباء فى قوله : « بما كذبون » للسببية ، و « ما » مصدرية أى : بسبب تكذيبهم لإياى ، وجوز أن تكون الباء آية ، و « ما » موصولة ، والمعنى : انصرتنى بالذى كذبونى به وهو العذاب الذى حذرتهم منه ضمن قولى لهم : « إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »^(١) ..

« فأوحينا إليه » : يطلق الوحى على الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والإيماء والكلام الخفى ، يقال : وحيته إليه السلام وأوحيته وحيا أى : ألقىته إليه ، وفى التنزيل : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »^(٢) ، أى : ألهمها وأمرها .. « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا »^(٣) ، أى : أشار إليهم وأوما .. ويقال : استوحيته إذا استفهمته ... والوحى : ما يوحيه الله عز وجل إلى أنبيائه عليهم السلام ، قالوا : وسمى وحيا ، لأن الملك أسره على الخلق وخص به النبى المبعوث إليه ...

« أن اصنع الفلك » : الفلك : السفينة ، تذكو وتوث ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع ، وأن : مفسرة لما فى الوحى من معنى القول .. « بأعيننا » : الجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل « اصنع » ، والمعنى : متلبسا بمزيد حفظنا ورعايتنا لك من التعدى أو من الزيف فى الصنع ، متبعا لأمرنا الذى نوحيه إليك ...

والمواد بالأمر فى قوله : « فإذا جاء أمرنا » : العذاب ، كما فى قوله تعالى :

• (٢) سورة النحل آية ٦٨ •

• (١) سورة الاعراف آية ٥٩ •

• (٣) سورة مريم آية ١١ •

« **إِلَّا عَاصِمَ الْبَيْتُونَ مِنَ آمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ** »^(١) وجمعه «أهور» ، وليس المراد به الأمر بالركوب ، فهو واحد الأوامر ، والمراد بجميته : كمال اقترابه أو ابتداء ظهوره ، وقوله : « **وفار التنور** » أى : جاش ، يقال : فارت القدر تفور فورا وفورانا إذا غلت وجاشت ، فهو بيان وتفسير لمجىء الأمر ، أى أن مجىء الأمر هو فور التنور ، فقور التنور علامة مبينة لمجىء أمر الله عز وجل ...

وقيل إنه معطوف على ما قبله عطف نسق ، فالواو عاطفة وليست بيانية ، والتنور فى اللغة : نوح من الكوانين ، وهو ما يخبز به ، ويطلق أيضا على وجه الأرض ، وقد اختلف فى المراد به فى الآية الكريمة ، فقيل : هو تنور آدم عليه السلام ، صار إلى نوح ، فلما نبع منه الماء أخبرته امرأته ، فركبوا السفينة . وقيل : التنور وجه الأرض ، والمراد بالفور : تفجر الأرض وفوران الماء منها ، وقيل : طلوع الفجر وتنوير الصباح ، وقيل : إن الماء فار من تنور الخابزة ، وقال ابن عباس : التنور الذى بالجزيرة وهى عين الورد ، قيل أراد سبحانه إذا فار الماء من ناحية مسجد الكوفة ، وقيل : إنه تنور آدم كان فى مسجد الكوفة ، أو فى الشام أو فى الجزيرة ، والله تعالى أعلم براده^(٢) ...

« فاسلك فيها » أى : أدخل ، يقال : سلك فيه أى : دخل فيه ، وسلكه : أدخله ، ومنه قوله تعالى : « **مَا سَأَلَ كُمْ فِي سَعَرَةٍ** »^(٣) أى : ما أدخلكم فيها وصيركم إليها ... « من كل زوجين اثنين » أى : من كل أمة زوجين أى : فردين مزدوجين ذكر وأنثى ، كما يعرب عنه قوله « اثنين » ، فزوجين مفعول « اسلك » ، واثنين تأكيد وزيادة بيان ، وقرئ من كل بدون تنوين ، على الإضافة فيكون المفعول « اثنين » والمعنى : من كل أمى الذكر والأنثى اثنين ، كجمل وناقية وثور وبقرة ...

(٢) انظر روح المانى ج ١٨ ص ٢٦ .

(١) سورة هود آية ٤٣ .

(٣) سورة المدثر آية ٤٣

« وأهلك » : مفعول به لفعل محذوف ، أى : واسلك أهلك ، والمراد بالأهل : كل من آمن به ، فالاستثناء فى قوله : « إلا من سبق عليه القول منهم » استثناء منقطع ، وقيل المراد بالأهل ذوى قرابته ، فالاستثناء متصل ، والمستثنى ابنه وزوجه ، اللذان كفرآ به ، ولم يذكر من آمن من غير الأهل هنا اكتفاء بذكره هناك فى سورة هود ... « إلا من سبق عليه القول » المراد بالقول : القول بإهلاكهم ، والمراد بسبق ذلك : تحتمقه فى الأزل ، أو كتابة ما يدل عليه فى اللوح المحفوظ قبل أن تخلق الدنيا ، وجىء بعلى لكون السابق ضاراً ، كما جىء باللام فى قوله تعالى : « **وَإِذْ سَبَّحْتَ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ** »^(١) ، وقوله عزقائلاً : « **إِنَّ الَّذِينَ سَبَّحْتَ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى** »^(٢) لكون السابق نافعاً ...

« ولا تخاطبنى ، أى : لاتكلمنى وتحدثنى فيهم بشفاعاة وطلب النجاة لهم من العرق والعذاب ... ومعنى « استويت على الغلک » علوته واعتدات عليه ...

« منزلاً مباركاً » قرىء بفتح الميم وكسر الزاى على أنه اسم مكان ، والمعنى : أنزلنى مكاناً مباركاً ، وقرىء بضم الميم وفتح الزاى على أنه مصدر ، والمعنى : نزولاً مباركاً .. « إن فى ذلك » : المشار إليه هو المذكور من أمر نوح والسفينة وإهلاك الكفار .. « وإن كنا لمبتلين » إن : مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، واللام فارقة بينها وبين إن النافية ، والجملة حالية ، والمعنى : وإن الشأن كنا مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم ، أو مختبرين بتلك الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ، كما فى قوله : « **وَإِذْ تَرَكُنَا آيَةً قَهْلَ مِنْ مَدْكِرٍ** »^(٣) .

الأغراض والمزايا البلاغية : فصل قوله تعالى : « ما لكم من إله غيرد » عما قبله للاستئناف البيانى ، لأنها مسوقة لتعليل العبادة المأمور بها أو لتعليل الأمر بها ، والعطف بالنفاء فى قوله : « فقال يا قوم » ينبىء بمبادرة نوح عليه

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠١ .

(١) سورة الصافات آية ١٧١ .

(٣) سورة النور آية ١٥ .

السلام ومسارعتة إلى التبليغ وعدم توانيه في أداء ما كلفه الله به ، وإضافة القوم إليه : « قومي » يذبيء بتعطفه عليهم واستماتته لهم إلى الحق والهداية ..

والمراد بالأمر في قوله : « اعبدوا الله » إفراده بالعبادة وإخلاصها له ، أي : اعبدوه وحده ، كما يفصح عنه : « **أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** » (١) ، وترك التقيد هنا للإيدان بأنها هي العبادة ، أما العبادة مع الإشراك فليست من العبادة في شيء ... والاستفهام في قوله : « أفلا تتقون » استفهام إنكارى ، ودخول الهزمة على الفاء يفيد أن المنكر هو ترتب عدم وقوع التقوى على علمهم أنه ليس لهم إله غيره أى : كيف لا تتقون وقد تيقنتم أنه الإله الحق ...

وفي قوله : « ما لكم من إله غيره » قصر لصفة الألوهية عليه تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا .. وفي قوله : « ما هذا إلا بشر مثلكم » قصر لنوح عليه السلام على صفة البشرية لا يتعداها إلى كونه ملائكة ، فهو قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا .. وفي قوله : « إن هو إلا رجل به جنة » قصر له عليه السلام على صفة الجنون أو على مجيء الجن واتصالهم به فهم يخبلونه .. وفي قوله : « ولو شاء الله لآنزل ملائكة » حذف مفعول المشيئة لدلالة جواب « لو » عليه والمعنى : لو شاء لإرسال رسول لأرسل ملائكة ، أو لو شاء أن نعبده وحده لآنزل ملائكة يبلغوننا ذلك .. وفي « أنزل » مجاز مرسل علاقته للزومية ، لأن إرسال الملائكة يستلزم إنزالهم ..

وقد أوتر التعبير بعلى في قوله : « إلا من سبق عليه القول منهم » ، ليكون السابق ضارا ، كما جرى - باللام في قوله تعالى : « **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ** » (٢) ، ليكون السابق نافعا ، وقد اجتمعت اللام وعلى في قوله تعالى : « **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** » (٣) ، وقول عمر رضى الله عنه :

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠١ .

(١) سورة هود الآية ٢١ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

« ليتها كانت كفافا لاعلى ولا لى » .. وفى قوله : « ولاتخاطبنى فى الدين ظلّموا إنهم مفرقون » ، فصلت جملة : « إنهم مفرقون » ، عما قبلها للاستئناف البيانى لأنها تعليل للنهى عن المخاطبة ، أو لما ينبىء عنه من عدم قبول الشفاعة ، وقد أكدت لانشغال نوح عليه السلام بأمرهم حيث تقدم الأمر بصنع الفلك ، والنهى عن المخاطبة فى شأن الذين كفروا ، وكأنه عليه السلام تساءل هل سيغرقون ؟ ، تعلق ذهنه وانشغل بما سينزل بهم ، ولذا كان التأكيد : « إنهم مفرقون » تثبيتا وتمهيرا وإجابة لهذا الانشغال وذلك التساؤل .. وفى « الذين ظلّموا » وضع للبهز فى موضع المضمر تسجيلا عليهم ..

وفى قوله : « فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك » ، قدم إدخال الأزواج على الأهل ، لأن إدخال الأزواج يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام وإلى معاونة الأهل ، أما هم فيدخلون باختيارهم ، وأيضا فإن فى المؤخر ضربا من التفصيل بذكر الاستثناء وغيره ، فتقديمه يخل بتجاوب النظم الكريم ..

وفى قوله : « قال رب انصرنى » استئناف بيانى وكان سائلا سأل : فماذا قال عليه السلام ؟ ، فأجيب : « قال رب انصرنى .. » ..

وفى قوله : « فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . » وقل رب أنزلنى .. » جملة من المزايا والملاحظات البلاغية أهمها :

١ - التعبير بإذا التى تنفيذ تحقق الاستواء والقطع بوقوعه ..

٢ - إفراده عايه السلام بالأمر « قل » مع شركة الكل فى الاستواء لإظهار فضله عليه السلام وعلو منزلته فهو الذى يشرف ويفوز بعز الحضور فى مقام الإحسان ، مع الإيماء إلى كبريائه عز وجل وأنه سبحانه لا يخاطب كل أحد من عباده ، والإشعار بأن فى دعائه عليه السلام وثنائه مندوحة عما عداه ..

٣ - تكرار « قل » ، لتعدد الدعاء ، والأول متضمن دفع المضرة « الحمد لله

الذى نجانا .. ، والثانى لجلب المنفعة ، « رب أنزلنى منزلا مباركا ، وإنا كنا كان تقديم الأول على الثانى ..

٤ - فى « القوم الظالمين » وضع للمظهر موضع المضمّر تسجيلا للظلم الذى استحقوا من أجله الإهلاك والإغراق ..

٥ - قيل : « الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين » ولم يذكر إهلاكهم ، لأن الحمد على الإنجاء منهم متضمن للحمد على إهلاكهم ، ولأن نعمة الإنجاء أتم من نعمة الإهلاك ، وفيه إشارة إلى أنه لا ينبغى أن يسر بصيبة أحد ولو عدوا من حيث كونها مصيبة له ، بل لما تضمنته من السلامة من ضرره أو تطهير الأرض من وسخ شركه وضلاله ، فالحمد رديف الشكر ، وإذا خص بالنعمة الواصلة إلى الشاكر ، لا يصح أن يتعلق بالمصيبة من حيث أنها مصيبة ..

معانى الآيات الكريمة : لما ذكر سبحانه وتعالى نعمه التى أنعم بها على عباده ، نعمة خلقهم وخلق السموات ، وحفظه ورعايته شئونهم ، وإنزال الماء الذى فيه حياتهم ، وخلق الأنعام لمنافعهم وإيتاؤهم ، أتبع ذلك ذكر أخبار السابقين ، وبيان إهمال الناس ، وتركهم النظر والاعتبار والتأمل فيما خلق الله ، وعدد من النعم ، وما حاق بهم وحل من عذاب ، لكفرهم النعمة ، وإعراشهم عن التدبر والنظر ، وذلك بغرض التخويف والتحذير والحث على التأمل والاعتبار ، وقد بدأ بقصة نوح عليه السلام ، إذ هو أول رسول بعد آدم عاينها السلام ، وفى إيرادها إثر قوله تعالى : « وعليها وعلى الفلك تحملون » ما لا يخفى من حسن الموقع واطف التناسب ، حيث نجى عليه السلام بالفلك الذى أمر بصنعه ، وقد صدرت القصة بالقسم لكمال الاعتناء بمضمونها .. فقد بعثه الله عز وجل إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، وأرجح الأقوال أن نوحا عليه السلام بعث فى سن الأربعين وظل يدعو قومه هذه الفترة ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين عاما ، فعمره خمسون وألف سنة .. ولم يؤمن بدعوة نوح عليه السلام ،

على الرغم من طول مكثه فيهم إلا قليل من قومه ، فقد كذبوه وأذوه وأعرضوا عن دعوته، وقالوا « مَا فَرَكَ أَتَجْمَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا »^(١) ولا اعتقادهم الباطل أن الرسول لا يكون بشرا، قالوا : « ما هذا إلا بشر مثلكم »، وأثاروا المخاطبين وأغضبوهم وأهلبوا حيتهم ضده عليه السلام ، فقالوا : « يريد أن بتفضل عليكم » ، ثم أكدوا أمر بشريته منكرين لإرساله : « ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولى . » أي : ما سمعنا بمثل هذه الدعوى أو بمثل هذا الكلام ، أو ما سمعنا بنوح ، يريدون تحقيره والخط من شأنه ، ولذا قصروه على الجنون ، وقالوا تر بصوا به حتى يفيق ، أو يذهب دما به ، أو يموت فنستريح منه ، قالوا ذلك على الرغم من معرفتهم أنه أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا .. وما أعجب شأن الكفرة : لم يرضوا للنبوته ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر .. ولشدة ما لاقى عليه السلام من الأذى دعا ربه : « أنى مغلوب فانتصر ، وقال رب لا تنزل على الأرض من الكافرين ديارا ، رب انصرنى بما كذبون ، واستجاب الله دعاءه وأمره بصنع الفلك ، فإذا جاء أمر الله وحل عذابه وانتقامه ، فليسلك فى السفينة من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول بالإهلاك لإعراضه وكفره... روى أنه عليه السلام لم يحمل فى الفلك إلا ما يلد أو يبيض ، أما ما يتولد من العفونات كالبق والذباب والدود فلم يحمل منه شيئا ولعل نحو البغال ملحقه بهذا الجنس فى عدم الحمل... »^(٢) ونهاه ربه أن يناجيه فى شأن الكفرة الظالمين فإنهم مغرقون ، وأمره أن يدعو عند استوائه هو ومن معه على الفلك قائلا : « الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين » ، وأن يقول : « رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » ، يقول ذلك عند دخوله الفلك ، أو عند نزوله منها إلى الأرض ، ولا بأس من إرادة أن يقال ذلك الدعاء ، عند دخول الفلك ، وبعد اللخول ، على إرادة دوام البركة ، وعند النزول

(٢) انظر روح المعانى ج ١٨ ص ٢٧ .

(١) سورة هود الآية ٢٧ .

لملى الأرض بعد انتهاء الطوفان ... قالوا : نزل عليه السلام على الجودى وهو جبل بالجزيرة ، وقيل بالموصل ، وقيل هو الطور ، والله أعلم ، ثم يذكر سبحانه وتعالى أن فى تلك القصة آيات لمن أراد أن يعتبر ، فيها عظات لمن ألقى السمع ، وتأمل وتدبر ، وأن الشأن أن يتلى الله عباده ويختبرهم ليظهر من يعتبر ويتذكر ، شأنه تعالى أن يرسل الرسل ، ويبين الآيات : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ آتَيْنَا رَسُولًا » (١) .

* * *

« ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَنَدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ . فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ كَأَكْلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِن أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ لَأَنَّكُمْ إِذَا تَخَابَرْتُمْ أَنَكُمْ إِذَا مِثَّمْ وَكُفْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَكُمْ تُخْرَجُونَ . هِيَآتَ هِيَآتَ لِمَا تُوْعَدُونَ . إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبُّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ . قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ . فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَعَبَّأْنَاهُمْ قُدَّاءَ فَبَعْدَ اللَّغْوِ الظَّالِمِينَ » .

اللغة والإعراب : القرن : الأمة تأتى بعد الأمة ، قيل مدته عشر سنين وقيل عشرون وقيل ثلاثون وقيل ستون ، وقيل مائة سنة وهذا هو الأرجح ، وجمعه قرون ، والقرن من الناس : أهل زمان واحد ، قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

ويطلق القرن على الفترة من الزمان ، وللقرن معان أخرى كثيرة تستقصى في كتب اللغة ، والمراد به في الآية : الأمة وأهل الزمان الواحد ، وقد اختلف المفسرون في هؤلاء الذين أنشأهم الله بعد إهلاك قوم نوح ، فقيل هم عاد قوم هود ، لقوله تعالى : « **وَإِذْ كُرُوا إِذْ جَمَلَكُمْ خَلْقَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ** »^(١) ، ولجئ قصتهم على إثر قصة نوح في غير هذا الموضع ، وقيل هم قوم صالح ، لأنهم هم الذين أهلكوا بالصيحة ، وقد قال عز وجل في هذه القصة « **فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ** » ، وقيل هم أهل مدين قوم شعيب ، لأنهم من أهلك بالصيحة ، والراجح الأول ، وأما ذكر الصيحة ، فقد روى أن جبريل عليه السلام ، صاح بهم من الريح ، وفي ذكر كل على حدة : « **فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ** » هنا ، « **وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا كَمَا هَلَكُوهَا فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ** »^(٢) ، إشارة إلى أن كلا لو انفرد لتدميرهم لكفى ، كما أنه يجوز أن يراد بالصيحة : العقوبة الهائلة والعذاب المصظم ، قال الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدها على الأذقان

« **فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا** » : عدى فعل الإرسال بفي ، على الرغم من أنه يتعدى إلى ، للإيدان من أول الأمر بأن من أرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم ، بل نشأ فيهم ، بين أظهرهم ، يعرفون مكانه ومولده ، ليكون سكوتهم إلى قوله أكثر من سكوتهم إلى من يأتهم من غير مكانهم ...

و « **أَنْ** » في قوله : « **أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ** » مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول ، أى : قلنا لهم على لسان الرسول « **اعْبُدُوا اللَّهَ** » ، وجوز كون « **أَنْ** » مصدرية ، وقبلها جار مقدر ، والمعنى : فأرسلنا فيهم رسولاً بأن اعبدوا الله ...

(٢) سورة الحاقة آية ٦ .

(١) سورة الأعراف آية ٦٩ .

« وكذبوا بقاء الآخرة ، أى : بقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب ، أو كذبوا بالبعث ، ووصف الملأ بالكفر والتكذيب ذمًا لهم وتنديبًا على غلوهم في الكفر والتكذيب ، أو تمييزًا لهم عن آمن ، لأن كان فيهم من آمن من الأشراف ، على نحو ما مر بك في قصة نوح عليه السلام ...

« ومن قومه » بيان للملأ قدم على وصفهم اغرض بلاغى سيأتى بيانه ...

« وأترفناهم » : أى : نعمناهم ووسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه وكفروا وكذبوا... فالترف : التمتع ، يقال : صبي مترف إذا كان منعماً البدن مدلاً ، ويقال : أترفته النعمة : أطفته ، فالترف هو الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش ...

« مما تشربون » « ما » إما مصدرية والمعنى : ويشرب من شربكم ، وإما موصولة والعائد محذوف دل عليه ما قبله ، والمعنى : ويشرب مما تشربونه ، أو ويشرب مما تشربون منه ، على اعتبار أن المحذوف إما العائد وحده ، أو العائد مع الجار ...

« ولئن » : اللام موطنة للقسم ، وجملة « إنكم لخاسرون » جواب القسم ، و« إذا » قيل ظرف متعلق بما تدل عليه النسبة بين المبتدأ والخبر من الثبوت ، أو متعلق بالخبر ، واللام لا تمنع عن العمل فى مثل ذلك ، لأن الظرف وكذا الجار والمجرور يتوسع فيهما ما لم يتوسع فى غيرهما ، والتزوين عوض عن الجملة المحذوفة المضاف إليها الظرف إذ ، وجواب الشرط محذوف دل عليه المذكور ، والمعنى : والذى نقسم به إنكم لخاسرون ، إن أطعمتم بشرًا مثلكم تخسروا عتواكم وتغبنوا فى آرائكم ، إذ أذلتكم أنفسكم بطاعة بشر مثلكم ...

وقيل إن « إذا » حرف جواب وجزاء واقع فى جواب الشرط المقدر ، والمعنى : إن أطعمتم بشرًا مثلكم إذا تخسروا عقولكم وتغبنوا فى آرائكم ... « أيعدكم أنكم » : يقدر حرف الجر ويجوز ألا يقدر ، لأن وعد يتعدى

بالباء ويتعدى بنفسه ، يقال : وعدتك الخير ، ووعدتك به .. « إذا تم » : إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشروطه منصوب بجوابه ، وتمم : بكسر الميم من مات يمات ، كخاف يخاف ، وقرىء بضمها من مات يموت ، كقال يقول ، و« مخرجون » خبر أن الأولى ، و« أنكم » الثانية مكررة للتأكيد ، وجواب إذا محذوف والمعنى : أيعدكم بأنكم مخرجون ؟ مخرجون إذا تم .. ويجوز أن يجعل : « أنكم مخرجون » مبتدأ ، و« إذا تم » خبرا على معنى : إخراجكم إذا تم ، ثم أخبر بالجملة عن « أنكم » الأولى ، ويجوز أن يرفع : « أنكم مخرجون » بفعل هو جزاء للشرط ، كأنه قيل : إذا تم وقع إخراجكم ، وتكون جملة الشرط خبرا لأنكم الأولى .. « هيات » قرىء بالفتح والضم والكسر وكلها بالتثوين وبلا تنوين ، وقرىء بالسكون على لفظ الوقف ، وهو اسم فعل ماض بمعنى بعد ، وفاعله مستتر يرجع إلى التصديق أو الصحة أو الوقوع أو نحو ذلك مما يفهمه السياق ، والمعنى : بعد التصديق أو بعد وقوع الذى توعدونه ، أو بعد إخراجكم ، وتكرار هيات لتأكيد البعد ، والغالب فى هذه اللفظة بجيئها مكررة ، وقد جاءت غير مكررة كما فى قول جرير :

* وهيات خـل بالعقيق نواصله *

وقوله عز وجل « لما توعدون » بيان لما رجح ذلك الضمير فاللام متعاقبة بمقدر ، كما فى سقياله ، أى : التصديق أو الوقوع أو الإخراج المتصف بالبعد كائن لما توعدون ، وأجاز البعض أن يكون الفاعل محذوفا وليس بضمير مستتر وهو مصدر كالوقوع والتصديق والجار والمجرور متعاق به ، وقيل إن فاعل « هيات » : ما توعدون ، واللام زائدة ، ويؤيده قراءة ابن أبى عمير « هيات هيات ما توعدون » بغير لام ، ورد بأنها لم تعهد زيادتها فى الفاعل ، وقيل إن اللام فى : « لما توعدون » لبيان المستبعد ، كما فى قولهم : هيت لك ، كأنه قيل : لماذا هذا الاستبعاد ؟ فقيل : لما توعدون ... وقيل إن هيات فى تقدير المصدر ، والمعنى : البعد لما توعدون ، أو بعد لما توعدون ، فتكون على هذا مبتدأ خبره

« لما توعدون ... » « إن هي إلا حياتنا » : عاد الضمير على « تأخر لفظا ورتبة لأنه فسر بالخبر ... وجملة : « وما نحن بمبعوثين » جملة حالية ...

« عما قليل » : أى : عن زمن قليل ، فما صلة بين الجار والمجرور ، جرى بها لتأكيده معنى القلة ، ومثله قوله تعالى : « ذَمِيمًا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّتَ أَهَمُّ » (١) ، و« قليل » : صفة لزمان حذف واستغنى بها عنه ، والاستغناء عنه يؤكد أيضا معنى القلة ...

وجوز أن تكون « ما » نكرة تامة ، و« قليل » بدلا منها ، وأن تكون نكرة ووصوفة ب« قليل » ، و« عن » هنا ، بمعنى بعد ، أى : بعد وقت قليل ، والجار والمجرور متعاق بقوله : « ليصبحن نادمين » ، وتعلقه بكل من الفعل والوصف بحتمل ، أى : ليصبحن عما قليل نادمين ، أو ليصبحن نادمين عما قليل ، واللام في « ليصبحن » لام القسم ، وجاز تعلق الجار والمجرور بالفعل « يصبح » ، أو بالوصف « نادمين » مع توسط لام القسم ، لأن الجار والمجرور والظرف يتوسع فيهما مالا يتوسع في غيرهما ...

و« الصيحة » : صيحة جبريل عليه السلام ، حيث صاح بهم صيحة فدمرتهم ، ويجوز أن يراد بالصيحة العقوبة الهائلة والعذاب الشديد .. و« بالحق » : متعلق بالأخذ ، والحق : الأمر الثابت الذى لا مدفع له ، كما فى قوله تعالى : « وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » (٢) ، أو العدل من قولك : فلان يقضى بالحق إذا كان عادلا فى قضاياه ، أو الوعد الصادق الذى وعد به رسوله ضمن قوله : « عما قليل ليصبحن نادمين .. » « فجعلناهم غناء » أى : كغناء السيل وهو ما يحمله من الورق والعيدان البالية ، ويجمع على أغناء شذوذا ، وقد تشدد ثأره ، كما فى قول امرئ القيس يصف ذرى رأس الجيمر وهو جبل من جبال بنى أسد :

(٢) سورة ق الآية ١٩ .

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

كأن ذرى رأس المجير غدوة من السيل والغناء فلسك مغزل
« فبعداً للقوم الظالمين » : يحتمل الإخبار ويحتمل الدعاء ، « وبعداً ،
منصوب على المصدرية ، وهو من المصادر التي لا يند كرفعها معها ، واللام إما لبيان
من دعى عليه إذا كان المراد الدعاء ، أو متعلقة بمحذوف إذا كان المراد الإخبار
ببعدم ، والبعد ضد القرب ، والمراد به : الهلاك والطرده من رحمة الله ،
والمعنى : بعدوا بعداً من رحمة الله أو من كل خير أو من النجاة ، أو هلكوا
هلاكا كما كنا للقوم الظالمين ...

الأسرار والمزايا البلاغية : في قوله تعالى : « وقال الملأ من قومه الذين
كفروا وكذبوا بقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ، قدم الجار والمجرور :
« من قومه » على الصفة « الذين كفروا ... » ، ففصل به بين الصفة والموصوف ،
على الرغم من تأخيره في القصة السابقة ، وذلك لأمرين :
الأول : لئلا يطول الفصل بين البيان والمبين لو جىء بالجار والمجرور بعد
الصفة وما في حيزها مما تعاق بالصلة ..

الثاني : حتى لا يتوهم تعلقه بالدنيا لو أخر ، أو يفصل به بين المعطوف
والمعطوف عليه لو جىء به بعد الوصف وقبل العطف ..

وفي قوله : « ما هذا إلا بشر مثلكم ، مبالغة في توهين أمر الرسول عليه
السلام وتهوينه ، وذلك بقصره على صفة البشرية ، والرسول في زعمهم لا يكون
بشراً ، قاتلهم الله ، ما أجهلهم ...

وفي قوله تعالى : « ولئن أطعتم بشراً مثلكم لأنكم إذأ لخاسرون ، حذف
القسم وجواب الشرط « إن ، والمضاف إليه الظرف « إذ ، والتقدير : والذي
نقسم به لأنكم لخاسرون ، إن أطعتم بشراً مثلكم تخسروا عقولكم ، وتغبنوا
في آرائكم ، إذ أدلتهم أنفسهم بطاعة بشر مثلكم ، ووراء تلك المحذورات دقائق
لطيفة ، فحذف القسم ينبىء ببعد المقسم به ، وضرورة أن ينزه النظم الكريم
عن ذكره ، فهم بم يقسمون ؟ باللات والعزى ومناة ، وغيرها من الأصنام ..

وحذف جواب الشرط والمضاف إليه الظرف ، يؤمى إلى ضرورة أن تنزه عقولهم عن الخسران وآراؤهم عن الغبن وأنفسهم عن الذل ، فلا ينسب ذلك إليهم في اللفظ ، فهم يعتقدون أن عقولهم وآراءهم وأنفسهم بمنأى عن ذلك ، ولا ينسب إليها إلا ما يدل على الرثعة والسمو ...

والاستفهام في قوله : « أبعدم .. » يفيد الإنكار ، إنكار وقوع ما يدعوهم للإيمان به ، واستبعاده ، وتكرار « أنكم » و« هيات » يفيد المبالغة في إنكار واستبعاد وقوع ما يدعوهم للإيمان به .. وتقديم التراب على العظام في قوله : « وكنتم ترابا وعظاما » لعزاقته في الاستبعاد والإنكار ، وجائز أن يكون مرادهم : إذا صار متقدركم ترابا صرفا ومتأخروكم عظاما .. وفي قوله : « إن هي إلا حياتنا الدنيا » وضع للضمير موضع الظاهر إذ المعنى : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وهذا يدل على التوكيد ، لأن ذكر الضمير أولا « هي » يجعل المخاطب يتطلع ويستشرف إلى إيضاحه وبيانه ، فعندما يأتي الخبر مفسرا له ومبيننا يقر في النفس ويتأكد وتأنس به ، ولا يخفى عليك ما في القصر أيضا من الدلالة على التوكيد والمبالغة في إنكار البعث .. وجملة « نموت ونحيا » بيان وتفسير للجملة قبلها ، فبين الجملتين شبهة كما اتصال أى : استئناف بياني ، إذ ينبعث من الجملة الأولى سؤال تقع الثانية جوابا له ، وكأن سائلا سأل : كيف لا تكون الحياة إلا حياتكم الدنيا ؟ فجاء الجواب : نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . وهذا هو سر الفصل بين الجملتين ... والتعبير بالاسم في قوله : « وما نحن بمبعوثين » .. « وما نحن له بمؤمنين » يفيد توكيد النقي ويدل على استمراره ودوامه .. وفي قوله تعالى : « عما قليل » حذف للموصوف وزيادة للمعنى : عن زمن قليل ليصبحن نادمين ، والخذف والزيادة يدلان على تأكيد معنى القلة ، والمبالغة في قصر الزمن ... وفي قوله : « فجعلناهم غناء » : تشبيهه بليغ ، حيث شبههم وقد أهلوا ودمروا بالغناء الذى يحمله السيل من الورق والعيدان البالية ، وهذا ينبىء بمدى هلاكهم وتدميرهم .. وفي قوله : « فبعدا للقوم الظالمين » وضع للمظهر موضع المضمرة ،

لإذ الأصل : فبعدا لهم لتقدم ذكركم، وتكون بلاغة هذا الأسلوب في أنه يسجل
ظلمهم ويؤذن بأن إبعادهم إنما هو من أجل هذا الظلم ...

معاني الآيات الكريمة : يخبر الله عز وجل أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً
آخرين هم عاد - كما وضحنا - ، وأنه تبارك وتعالى أرسل فيهم رسولا فدعاهم
إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فليس لهم من إله غيره ، ولا يكن القوم كذبوا
وبالغوا في العناد والمكابرة ، وعلى الرغم من أن الله عز وجل أنعم عليهم
وأترفهم في الحياة الدنيا ، إلا أنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر فيجيئوا داعي الله ،
بل كذبوه واستبعدوا ما جاء به ، قالوا : « ما هذا إلا بشر مثلكم ، والرسول في
زعمهم لا يكون بشرا ، ثم أكدوا بشريته ، صرفا للناس عن قبول دعواته :
« يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » ، بل أهعنوا في صرف الناس
وتهميهم وإلهايمهم : « وائئن أطعمتم بشرا مثلكم إنكم إذا الخاسرون . أيعبدكم
أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون » ،
وعلى الرغم من علمهم بصدقه وأمانته ورجاحة عقله ، فقد اتهموه بالكذب
والافتراء على الله تعالى : « إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له
بمؤمنين » ، ولذا استفتح الرسول عليهم واستنصر ربه رب انصرتي بما كذبون » ،
فأجاب الله دعاه وياتقم من الذين كذبوه وظلموا ، فأخذتهم الصيحة بالحق
فجعلناهم غناء فبعدا للقوم الظالمين » ، وفي إهلاكهم عظة لمن أراد أن يتعظ
وعبرة لمن أراه أن يعتبر ، « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ
ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ... » (١) .

* * *

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ . مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا
وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ . ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ
فَأْتَبَعْنَا بِفَضْلِهِمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ . ثُمَّ
أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . لِيُفْرِعُونَ وَمَا نُنِ
فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . فَقَالُوا أُنزِلُوا مِنَّا قَوْمًا لِنَمُنَّ
عَابِدُونَ . فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ . وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى
رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ . يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا
صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ
فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .
فَدَرَبْنَا فِي قُرْبَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ . أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادِيهِمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنٍ .
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ . »

اللغة والإعراب : « قرونا آخرين ، : قيل هم قوم صالح ولوط وشعيب ،
كما وردت قصتهم على هذا الترتيب في الأعراف وهود ، وقيل هم بنو إسرائيل ،
والقرون : الأمم ، ولعل وجه الجمع هنا والإفراد فيما سبق قريبا ، أنه أراد
هنا أما متعددة وأراد هناك أمة واحدة ...

« ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ، : من : زائدة التأكيد معنى
الاستغراق المستفاد من الذكورة الواقعة في سياق التثنية ، والضمير في : « أجلها ،
عاد إلى « أمة » باعتبار اللفظ ، وفي : « يستأخرون ، عاد إليها باعتبار المعنى ،
وحاصل المعنى : ما تهلك أمة من الأمم قبل مجيء أجلها وما تستأخر عن ذلك
الأجل ساعة ...

« ثم أرسلنا ، عطف على « أنشأنا ، ، والعطف بثم لا يعني أن لإرسالهم

متراخ عن إنشاء القرون المذكورة جميعا، بل المراد أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن السابق عليه، حيث أرسل في كل قرن رسولا. وكأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصا بهم. • جملة: « ما سبق ... » جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.. « ترا » من الموازنة وهو التتابع مع فصل ومهلة. أما التتابع بلا مهلة فهو المداركة وقيل الموازنة هي التتابع بغير مهلة فهي مرادفة للمداركة، وقيل هي التتابع مطلقا فهي أعم من المداركة. والتاء الأولى في لفظ « ترا » بدل من الواو، كما في تراث وتجاه، يقال: واتر موازنة أى تابع متابعة، ومنه الوتر، والعرب على عدم تنوينه، فألفه للتأنيث كما لف دعوى وذكرى، فهو مصدر في موضع الحال، والمعنى: ثم أرسلنا رسلنا متواترين، وقيل هو صفة لمصدر مقدر أى: أرسلناهم إرسالاً متواتراً، وقيل مفعول مطلق لأرسلنا، لأنه بمعنى: واترنا ... وقرأ بعضهم: « تترى » بالتنوين وهو لغة كناية، وعلى هذه القراءة يجوز كسر التاء الأولى، لأن معنى « ثم أرسلنا »: واترنا ... « وجعلناهم أحاديث »: جمع أحداثه وهو ما يتحدث به الناس تعجبا، كما أعجيب جمع أعجوبة، أى جعلناهم أحاديث يتحدث بها على سبيل التعجب، ولا تقال الأحداث عند الأخفش إلا في الشر، يقال: صار فلان أحداثاً أى عبرة، وكما في قوله تعالى « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ »^(١) ولا أرى وجها لهذا التقيد، فقد يقال صار فلان حديثا حسنا، ومنه قول ابن دريد:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن روى

« بآياتنا وسلطان مبين »، قالوا: المراد بالآيات: الآيات التسع التي بحث بها موسى عليه السلام وهي: العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والطفوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ولا يصح عد فلق البحر منها هنا، لأن

المزاد بالآيات : الآيات التي كذبوا بها واستكبروا عنها ... والمزاد بالسلطان المبين : الحجة الواضحة البينة ، قيل هي الآيات التسع نفسها ، وقيل أراد العصا خاصة لأنها أم الآيات ، فهو من عطف الخاص على العام ..

وقيل المراد بالآيات : التكاليف الدينية ، وبالسلطان المبين : المعجز ، وقال أبو حيان : يجوز أن يراد بالآيات : نفس المعجزات ، وبالسلطان المبين : كيفية دلالتها ، وقيل المراد بالسلطان : تسلط موسى عليه السلام ، في المحاورة ، والاستدلال على الصانع الخالق عز وجل ، وقوة الجأش والإقدام ..

« وملته » المراد : إما الأشراف وقد خصوا بالذكر ، لأن غيرهم تابع لهم ورأيه منوط بأرائهم ، وإما القوم ، فقد جاء استعمال الملائم بمعنى الجماعة مطلقاً ..
« عالين » : متكبرين أو متطاولين بالبغى والظلم كبراً وعناداً وتردداً ، والمراد : كانوا قوماً عاداتهم التعالي ، ومنه قوله تعالى : « وَإِنْ فِرْعَوْنُ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ »^(١) وجملة : « وكانوا قوماً عالين » جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ..
« لبشرين » : ثني « بشر » لأنه يطلق على الواحد ، كقوله تعالى « فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا »^(٢) « وعلى الجمع كما في قوله : « فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا .. »^(٣) . ولم يثن « مثل » نظراً إلى كونه في حكم المصدر ، ولو ثني المثل لجاز لأنه في تأويل الوصف ، وكذا لو أفرد البشر لصح ، لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره .. « عابدون » : خادمون منقادون لنا كالعبيد ، والجار والمجرور : « لنا » يتعلق « بعابدون » ، وجملة : « وقومهما لنا عابدون » حال من فاعل « تؤمن » مؤكدة لإنكار الإيمان لهما ، بناء على زعمهم الفاسدان الرياسة الدنية مقبسة على الرياسة الدنيوية .. وقد عدى الفعل : « تؤمن » باللام ،

(٢) سورة مريم الآية ١٧

(١) سورة يونس الآية ٨٣

(٣) سورة مريم الآية ٢٦

لأن المراد به التسليم والانقياد ، على نحو ما أمر بك في أول السورة الكريمة .
 وجعلنا ابن مريم وأمه آية : أى : آية دالة على عظيم قدرتنا ، بولادته منها من
 غير مسيس بشر ، فالآية أمر واحد مشترك بينهما ، ولذا أفردت ، وقيل إن
 الكلام على حذف مضاف أى : وجعلنا حال ابن مريم وأمه آية ، أو جعلناهما
 ذوى آية ، وقيل حذف من أحدهما لدلالة الآخر عليه والمعنى : وجعلنا ابن
 مريم آية وأمه آية ، جعل عليه السلام آية لما ظهر على يديه من الخوارق ،
 وجعلت أمه آية ، لأنها ولدت من غير مسيس بشر ، وقيل لأنها تكلمت في
 صغرها أيضا ، وهذا معنى قوله تعالى : « قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ
 بِرِزْقِي مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (١) روى أنها قالت ذلك ولم تلتقم ثديا قط .

« وآييناهما إلى ربوة » أى : جعلناهما أيوانا إليها ، والربوة هى ما ارتفع
 من الأرض دون الجبل ، واختلف في المراد بها هنا فقيل هى دمشق ، وقيل هى الرملة
 بفلسطين ، وقيل هى بيت المقدس ، وقيل هى الاسكندرية ، وذكروا فى سبب إيوائهما
 أن ملك ذلك الزمان عزم على قتل عيسى عليه السلام فقترت به أمه إلى أحد هذه
 الأماكن ... « ذات قرار » : أى : مستقر من الأرض ، والمراد أنها فى واد
 فسيح ، تنبسط به نفس من يأوى إليه لوجود الثمار والزروع ، فهى محل صالح
 لقرار الناس ، لما فيه من الزروع والثمار .. « ومعين » على وزن « فعيل » أى :
 جار ، من معن بمعنى جرى ، وأصله الإبعاد فى الشئ ، ومنه أمعن النظر ، فهى
 صفة لموصوف محذوف والتقدير : ذات قرار وماء جار ، يقال : معن الشئ معانة
 أى : كثر ، ويجوز أن يكون « معين » من الماعون ؛ وإطلاقه على الماء الجارى
 لثقله ، وقيل إن وزنه : « مفعول » كخيط على أن الميم زائدة من عانه أدركه
 بعينه ، كركبه إذا ضربه بركبته ؛ وإطلاقه على الماء الجارى ؛ لأنه فى الأغلب
 يكون ظاهرا مشاهدا بالعين ؛ ووصف الماء بذلك لأنه الجامع لانسراح الصدر

وطيب المـكان وكثرة المنافع ... « يا أيها الرسل ، قيل هو حكاية لما ذكر ايعسى وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتهما بالرسل في تناول مارزقا ، كأنه قيل : آويناهما قائلين لهما هذا ، أى : معلبيهما أن الرسل جميعا خوطبوا بهذا ، فكلما واعملا اقتداء بهم ، وقيل هو نداء لعيسى عليه السلام وأمر له بأن يأكل من الطيبات ، وقيل هو نداء انديننا محمد صلى الله عليه وسلم وخطاب له والجمع للتعظيم ... وقيل هو حكاية له عليه الصلاة والسلام على وجه الإجمال ، لما خوطب به كل رسول في عصره ، جرى بها إثر حكاية إيواء عيسى وأمه ، للإيدان بأن إباحة النعم والطيبات شرع قديم ، وليس من خصائص عيسى عليه السلام ... والمراد بالطيبات : ما يستطاب ويستلذ من مباحات المأكول والفواكه ، ويدل على ذلك السياق « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » ، فالأمر بالإباحة والترفيه ، وفيه إبطال الرهبانية التي ابتدعتها النصارى ...

وقيل المراد بالطيبات : ما أحل والأمر تكليفي وأيد بتعقيبه بقوله : « واعملوا صالحا » ، وما جاء من أحاديث تحث على الطيب ، وتحذر من الخبيث ، ولعل المراد هو الأول ، ولذا قدم الأمر بأكل الطيبات ليلي قوله : « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » ، وجاء بعده الأمر بالعمل الصالح ، حثا على شكر النعمة ... على أنه لاتنافية بين المعنيين ، فأكل ما يستطاب ويستلذ ينبغى أن يكون طيبا حلالا لاخبيثا حراما ... « أمتكم » أى : ملتكم وشريعتكم ، أو جماعتكم ، والخطاب للرسل عليهم السلام ، وقيل عام لهم ولغيرهم ، والجملة معطوفة على جملة : « إني بما تعملون عليم » ، وقيل الواو ليست للعطف والجملة بعدها مستأنفة غير معطوفة على ما قبلها ... « أمة واحدة » حال ، العامل فيها معنى الإشارة أى أشير إليها في حال كونها شريعة متحدة في الأصول التي لاتتبدل بتبدل الأعصار ...

واسم الإشارة « هذه » مشاربه إلى الأمم الماضية للرسل ، أو إلى الملة والشريعة تجسيدا لها وتشخيصا ... « فاتقون » : الفاء لترتيب الأمر بالتقوى

على ما قبله ، من كونه ربكم المختص بالربوبية أى : لا تفعلوا ما يوجب العقوبة ففشركوا بنى غيرى ، أو تخالفوا ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ... « فقطعوا أمرهم » الفاء لترتيب عصيانهم على الأمر بالتقوى لزيادة تقييحهم ، والضمير يرجع إلى الأمة ، إذا اعتبرت بمعنى الجماعة ، وإلى أربابها إذا اعتبرت بمعنى الملة والشريعة وتقطع بمعنى قطع ، والمراد بأمرهم أمر دينهم ... « زبرا » أى : قطعاً وفرقاً ، جمع زبور بمعنى فرقة ، ويؤيده أنه قرئ : « زبرا » بضم الزاى وفتح الباء ، وهو مشهور ثابت فى جمع زبرة بمعنى قطعة ، وقيل هو جمع زبور بمعنى كتاب ، من زبرت بمعنى : كتبت ، ويعرب إما مفعولاً ثانياً لتقطعوا ، لضمته بمعنى جعلوا ، وإما حالاً والمعنى : جعلوا أمرهم بينهم قطعاً أو كتباً متفرقة ، أو تقطعوا أمرهم بينهم حال كونه قطعاً أو كالكاتب المفرقة ... « فذرهم فى غمرتهم » الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فى شأن قریش الذين تقطعوا فى أمر الدين الحق ، والمراد بالغمره : الجهالة والضلالة والحيرة والغفلة ، وأصل الغمره : الستر ، ويطلق على الماء الذى يغمر القامة ، وعلى الماء الكثیر الذى يغطى الأرض ، وغمر الرء : الذى يشمل الناس بالعطاء ، ويطلق أيضاً على الحقد ، وعلى ما يغمرك ويعلوك ، والمراد بغمرتهم فى الآية - كما قلنا - جهالتهم وغفلتهم ... « حتى حين » أى : حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل ، وهو يوم بدر ، على ما روى عن مقاتل ، أو حتى يموتوا على الكفر فيعذبوا فى النار ...

« أئحسبون أنما نمدهم به من دال وبنين نسارع لهم فى الخيرات » : ما اسم موصول ، و« من مال وبنين » بيان لها ، وجملة : « نسارع لهم فى الخيرات » خبر أن ، والعائد على الموصول محذوف ، والتقدير : نسارع لهم به ، وقيل إن ما مصدرية ، والمصدر المؤول اسم أن ، وخبرها « نسارع » حذف منه أن فارتفع ، والمعنى : أئحسبون أن إمدادنا لهم من دال وبنين مسارعة منا لهم فى الخيرات ... وقيل إن « ما » حرف ، فهى كافة لأن عن العمل ، والصواب هو الأول ... وقوله : « بل لا يشعرون » عطف على جواب مقدر ينسحب عليه

الكلام ، والتقدير : كلا لا نفعل ذلك ، بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً ، فهم كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل ، لأن ما حولنا هم من النعم وأمددناهم به من الخيرات ، إنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثمًا ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا نُتِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١) ...

الأسرار والمزايا البلاغية : قوله : « كما جاء أمة رسولها كذوبه » استئناف مبين للمجئى كل رسول إلى أمته ، ولما وقع منهم وصدور عنهم عند التبليغ ، وإضافة الرسول إليهم تدل على أن كل رسول جاء أمته الخاصة به ، وتنبئ وتشر بكمال شناعة المكذبين وشدة ضلالهم ، حيث كذبوا رسولهم المعادين لهم ، والذي يعرفون صدقه وأمانته ... وإضافة الرسل إلى الله عز وجل في قوله : « ثم أرسلنا رسلنا » ، وإلى القوم هنا مع المجئى : « تكلمنا جاء أمة رسولها » ، للإيدان بأن الإرسال الذي هو مبدأ الأمر منه تعالى ، والمجئى الذى هو منتهاه إليهم ...

وفى وصفهم بعدم الإيمان هنا « فبعدا القوم لا يؤمنون » ، وبالظلم فيما سبق « فبعدا للقوم الظالمين » ما يدل على دقة التعبير القرآنى ، وجمال نظمه ، فحيت اقتصر هنا على حكاية تكذيبهم إجمالاً ، اقتصر على وصفهم بعدم الإيمان ، وحيث فصل هناك ، وأبرز ما وقع منهم من الغلو فى التكذيب والافتراء ، وتجاوز الحد فى الكفر والعدوان ، وصفهم بالظلم ...

وفى قوله : (« آياتنا وسلطان مبين ») المراد بالسلطان المبين عند جمع من العلماء : العصا ، فيكون من قبيل عطف الخاص على العام ، وذلك لتفردھا بأمازايا حتى صارت كأنها شيء آخر مغاير للآيات ...

وقوله : (« ما تسبى من أمة أجالها وما يستأخرون ») جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، والغاية منها المسارعة إلى بيان هلاك أولئك

القرون على وجه إجمالى .. وكذا قوله : « وكانوا قوما عالين » اعتراض بين المعطوف « فقالوا » وبين المعطوف عليه « فاستكبروا » ، والغرض من هذا الاعتراض إبراز استكبارهم وتقريره .. وفي قوله : « أتؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » : ثنى « بشرين » على الرغم من كونه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره ، وأفرد « مثل » على الرغم من جـواز تثنيته وجمعه ، فإنه جاء منى في قوله : « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ »^(١) ، ومجموعا في قوله « ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمُ »^(٢) ، والغرض من ذلك هو الإشارة بتثنية « بشرين » إلى قلتهما وانفردهما عن قومهما ، مع كثرة الملائم واجتماعهم ، والإشارة بإفرد « مثل » إلى شدة تماثلهم حتى كأنهم مع البشرين شىء واحد ، وهذا أدل على ما عنوه من تنافى الرسالة والبشرية ، فالرسول - في زعمهم - لا يكون بشرا .. وفي « عابدون » استعارة تبعية ، حيث استعيرت العبادة للخدمة ، واشتق من العبادة « عابدون » بمعنى « خادمون منقادون » ، وجوز البعض : الحمل على حقيقة العبادة ، لأن فرعون كان يدعى الألوهية ، فادعى للناس العبادة على الحقيقة . قال تعالى : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي »^(٣) . وقيل إن العابد بمعنى الخادم حقيقة لا مجاز ... وفي « لنا عابدون » قصر لعبادة قومهما على كونها لهم ، والمعنى : وقومهما لنا عابدون لا لهما .. ولم يذكر « هارون » مع « موسى » عليهما السلام في قوله : « ولقد آتينا موسى الكتاب » ، اقتضارا على من هو الأصل ، ولأن الكتاب نزل على موسى بالطور وهارون كان قد تخلفه في قومه .. والتعبير عن « عيسى » عليه السلام « ابن مريم » وعن مريم « بأمه » في قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » ، للإيذان من أول الأمر ببحيثية كونهما آية ، فإن نسبته عليه السلام إليها مع أن النسب يكون إلى الآباء ، دالة على الأب له ، وتقديمه عليه السلام هنا لأصلاته فيما ذكر من كونه آية ، وتقديم « أمه » ، في قوله تعالى : « وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ »^(٤)

(١) سورة آل عمران الآية ١٣ . (٢) سورة محمد الآية ٣٨ .

(٣) سورة القصص الآية ٣٨ . (٤) سورة الأنبياء الآية ٩١ .

لأصالتها فيما نسب إليها من الإحسان والنفخ.. وفي قوله : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم » ، إيجاز قصر ، حيث عبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع على وجه الإجمال حكاية لما خوطب به كل رسول في عصره ... والأمر في قوله : « كلوا » للإباحة ، إذ المراد بالطيبات : ما يستطاب ويستلذ من مباحات المأكل والفواكه ، على نحو ما بينا ، وتقديم الأمر بالأكل ليقع بعد قوله : « وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » فإنه أوفى له ، ولأن أكل الحلال معين على العمل الصالح ، وأيضا لأن في تأخير الأدر بالعمل الصالح حثا على شكر النعم التي أنعم الله بها على رسله وعباده ، والتي تقدمت في قوله : « كلوا من الطيبات » .. وجملة « إني بما تعملون عليم » بيان وتعليل للأمر السابق ، والتحذير فيه للرسل عليهم السلام في الظاهر والمراد أتباعهم .. والإشارة إلى الملة والشريعة في قوله : « إن هذه » بيان لسبب ظهور أمرها في الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة المحسوسة ..

وفي قوله : « وأنا ربكم فاتقون » . الخطاب للرسل والأمم جميعا ، على أن الأمر في حق الرسل للتيسير والإلهاب ، والدوام على تحقيق الفعل ، وفي حق الأمة للتحذير والإيجاب ، وفيه وفي الأوامر المتقدمة دلالة على أن الرسل في منزلتهم العالية ومرتبتهم السامية يؤمرون وينهون ، وبذا تبقى الألوهية في مرتبتها العليا التي لا تدانها مرتبة مهما سميت ، والفناء لترتيب الأمر أو وجوب الامتثال له ، على ما قبله من اختصاص الربوبية به سبحانه وتعالى ، واتحاد الأمة فإن كلا منهما موجب للاتقاء حتما .. « فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا .. » الفاء تؤذن بأن تقطعهم قد حدث عقب الأمر وفيه مبالغة في ذمهم ، ولا يخفى عليك الالتفات من الخطاب فيما سبق إلى الغيبة هنا ، وهذا الالتفات ينبيء بابتعادهم عن المنهج الحق ، فلم يعودوا أهلا للخطاب ولذا تغلى الله عز وجل عنهم ، فأبعدوا وتخلفوا ، وغابوا عن ساحة الحضور .. والضمير في « تقطعوا » يعود إلى « الأمة » فإن كانت بمعنى الجماعة فالأمر واضح ، وإن كانت بمعنى الملة ، فالمراد أربابها ، أو المعنى على الاستخدام ،

حيث ذكر اللفظ بمعنى ، وعاد إليه الضمير بمعنى آخر ... وقد جاء هنا الأمر بالتقوى وعطف عليه التقطع بالفاء : « وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا ، وهذا أبلغ في التخويف والتحذير ، وأقوى في الذم والتوبيخ ، وفي سورة الأنبياء جاء الأمر بالعبادة وعطف التقطع بالواو: « وَأَنزَارُكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطُّوا... » (١) لأن المقام هنا يقتضى شدة التحذير والتخويف ، حيث جاءت الآية عقب إهلاك طوائف كثيرة ، قوم نوح والأمم من بعدهم ، وفي الأنبياء وإن تقدمت قصة نوح وما قبلها وما بعدها من القصص ، إلا أنه قد جاء قبل الآية ما يدل على الإحسان واللطف التام، في قصة أيوب وزكريا ومريم ، فناسب ذلك ذكر الأمر بعبادة من هذه صفته تبارك وتعالى، أما هنا فالملائم ذكر الأمر بالتقوى .. « فذرهم في غمرتهم حتى حين » تنكير الحين وإبهامه يدل على شدة التهويل والتفطيع لما سيحل بهم من عذاب ، والأمر « فذرهم » يدل على تماديهم في العناد والمكابرة وشدة إعراضهم عن الحق، وفي « غمرتهم » استعارة تصريحية ، حيث استعيرت الغمرة للجهالة لإجماع الغلبة والاستهلاك في كل ، ويجوز جعلها استعارة تمثيلية حيث شبهت حالتهم مع ما هم عليه من محاولة الباطل والانغماس فيه بحال من يدخل في الماء الغائر للعب ، والجامع تضييع الوقت مع الكدح في العمل، وهذا يلائم ما قبله : « كل حزب بما لديهم فرحون » حيث جعلوا فرحين ولا عبين عتوا وغرورا ...

معاني الآيات الكريمة : يخبر الله عز وجل أنه أنشأ بعد هلاك عاد قوم هود
أما أخرى هم قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ، كما جاء في سورة الأعراف
وسورة هود ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وتلك الأمم أرسل الله عز وجل
إليهم الرسل ، فجاء إلى كل أمة رسولهم ، ولكنهم كذبوا وتمادوا في ضلالهم ،
فأهلكهم الله وجعلهم أحاديث ، فبعد لهم وسحقا ، ثم أرسل سبحانه وتعالى

موسى وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج والبراهين القاطعة ، فأعرضوا عن الآيات وكذبوا واستكبروا وقالوا : « أتؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟ » ، أنكروا رسالتهما لكونهما بشرين ، كما أنكرت الأمم السابقة بعثة الرسل من البشر ، تشابهت قلوبهم ، فأغرقهم الله في اليم ونجى موسى ومن آمن معه ، وأنزل عليه التوراة فيها هدى ونور « **وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَحْكَمْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** » ^(١) ... ثم يشير سبحانه وتعالى إلى قصة عيسى عليه السلام ، وأنه تبارك وتعالى جعله وأمه آية ، وآواهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وأمر الرسل - كما أمر عباده الصالحين - أن يأكلوا من الطيبات التي أحلها لهم ، وأن يشكروه على نعمه بالعمل الصالح فإنه عليم بذات الصدور ، وقد ثبت عن أنى هريرة رضى الله عنه أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم » ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » ^(٢) ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذبه بالحرام فإني يستجاب لذلك » ... ثم يذكر سبحانه وتعالى أن شريعة الأنبياء أصابها واحد ، وهو الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا ، وترك عبادة الأوثان ، فإنه ربهم ، خالقهم وخالق ما ينفعهم ويصلح شأنهم ، فليتقوه وليحذروا عذابه ، ولا تكن الأمم كذبت رسلها وأعرضوا عن آيات ربهم وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، فرحين لاهين ، ولذا توعدهم الله عز وجل أمر أنبياءه صلى الله عليه وسلم « **فذرهم في غمرتهم حتى حين** » .. « **ذَرَّهُمْ يَا كُلُّوا وَبِئَمَّتُمُ الْأُمَلُ فَذُوفَ بَعْلُون** » ^(٣) ..

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٢ .

(١) سورة القصص الآية ٤٣ .

(٣) سورة الحجر الآية ٣ .

« قَمَّهِلِ الْكَافِرِينَ أَهْمَانَهُمْ رُوَيْدَا »^(١) ، هؤلاء الكفرة اعتقدوا أن ما هم فيه من رخاء ، وما يمدم الله به من الأموال والبنين ، اسكراتهم عليه ومعزتهم عنده ، وأنه عز وجل يسارع لهم في الخيرات .. ككلا لقد أخطأوا الاعتقاد ، فليس الأمر كما زعموا وقالوا : « نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ »^(٢) ، بل إن الله عز وجل يستدرجهم من حيث لا يعلون ، وينظوم ويملئ لهم ، ولذا قال عز وجل : « بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » ، كما قال تعالى : « فَلَا تَعْلَمُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »^(٣) ، وقال عز وجل : « إِنَّمَا نُقَالِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »^(٤) ، وقال عز قائلًا : « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالْبَاقِي تَقَرُّبِكُمْ عِنْدَنَا زُنًى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. »^(٥) .

• • •

« إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ . وَلَا تَنْكَلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِأَلْحَقٍ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُم لَهَا عَامِلُونَ . حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْمَرُونَ . لَا تَجْمَرُوهَا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ . قَدْ كَانَتْ آيَاتِي

(٢) سورة سبأ آية ٣٥ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٧٨ .

(١) سورة الطارق آية ١٧ .

(٣) سورة التوبة آية ٥٥ .

(٥) سورة سبأ الآية ٣٧ .

نَقَلَ عَلَيْكُمْ فَاذْكُرُوا هَلْ أَغْنَىٰ بِكُمْ تَنكِصُونَ . مُتَّكِرِينَ بِهِ سَامِرًا
تَهْجُرُونَ . . .

اللغة والإعراب : الإشفاق : الخوف ، تقول أنا مشفق من هذا الأمر
أى : خائف ، والخشية أيضاً : الخوف ، فهما بمعنى واحد كررا للتأكيد ، وقيل
لا تكرار ، وذلك بحمل الخشية على العذاب ، والمعنى : والذين هم من عذاب
ربهم مشفقون ، أو حمل الإشفاق على ما هو أثر له ، وهو الدوام على الطاعة ،
والمعنى : والذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته ، وقيل المراد بالإشفاق
كمال الخوف ، وعليه فلا تكرار أيضاً ... « بآيات ربهم يؤمنون » : الجار
والمحروور متعلق بقوله « يؤمنون » : والباء للمبالغة ، والمراد بالآيات : الكونية
والتنزيلية ، ومعنى الإيمان بها : التصديق بمدلولها ، إذ لا مدح في التصديق
بوجودها ... « لا يشركون » أى : يخلصون له العبادة ، قالوا : المراد نفي الشرك
الحق كالرياء بالعبادة ، وقيل المراد التعميم أى : لا يشركون به تعالى شركا جليا
ولا خفيا ، فالآية السابقة وصف لهم بتوحيد الربوبية ، وهذه وصف لهم بتوحيد
الألوهية ، ولم يقتصر على الوصف الأول ، لأن أكثر الكفار متصفون بتوحيد
الربوبية : « وَكَلِمَاتٍ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ » (١) . . . « وَكَلِمَاتٍ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » (٢) .

« يؤتون ما آتوا » : من الإيتاء أى : يعطون ما أعطوا من الصدقات ، وقرى :
« يأتون ما أتوا » من الإيتان أى : يفعلون من العبادات ما فعلوا وقلوبهم وجلة أى :
خائفة ألا يقبل منهم وألا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا . . . وجلة :
« وقلوبهم وجلة » في موضع الحال من الضمير الأول . . . « أنهم إلى ربهم
راجعون » : تعليل لوجل قلوبهم بتقدير اللام التعليلية أو من الابتدائية التي
يتعدى بها الوجل ، والمعنى وقلوبهم وجلة من عدم القبول على الوجه اللائق ،

لأنهم راجعون إليه تعالى ، أو وقلوبهم وجلة من أن رجوعهم إليه عز وجل ، على أن مناط الوجل وسببه ألا يقبل ذلك منهم على الوجه المطلوب ، لا مجرد رجوعهم ، وقيل المعنى أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب ، وعلم أن المجازى والمحاسب هو الرب الذي لا يخفى عليه خافية ، لم يخجل من وجل ... وجملة : « أولئك يسارعون ، خبر « إن » المذكورة في أول الآيات الكريمة ، وقرئ : « يسرعون » مضارع أسرع ، يقال أسرع إلى الشيء وسرع إليه بمعنى واحد ، « ويسارعون » أبلغ من « يسرعون » ، لأن المفاعلة تكون من اثنين فتقتضى حث النفس على السبق ... ومعنى « يسارعون في الخيرات » يسارعون في النبل والفوز بالخيرات ، التي من جملتها الخيرات العاجلة ، الموعودة على الأعمال الصالحة ، كما في قوله تعالى : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ تَوَابِ الآخِرَةِ » (١) ، وقوله عز قائله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْعَلُوا مِنْ دِينِكُمْ رِجَالًا مَدِينًا تَطَوَّعَتِ السَّاعِدَاتُ وَالسَّاعِدُونَ فِي السَّعَادَاتِ وَالَّذِينَ يَأْتُوا اللَّهَ مِنْ قِبَلِهِ يَخُوفًا وَرُجُوعًا وَخَرَسَاتٍ أَعْرَاجُهَا وَخَلْدَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ الآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ » (٢) ، أثبت لهم ما نفي عن الكفارة فيما سبق ... وقيل المراد : يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها ، والأول أولى اطابقت الآيات المتقدمة ، ولأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار المؤمنين ... « وهم لها سابقون » الضمير يرجع إلى الخيرات والجار والمجرور يتعلق بقوله : « سابقون » وهو إما منزل منزلة اللازم أي : فاعلون السبق ، أو مفعوله محذوف ، والمعنى : سابقون الناس أو الكفار ، والسبق يتعدى بإلى وباللام يقال : سبق إلى كذا وله ، وقيل اللام زائدة للتقوية والمعنى : وهم إياها سابقون أي : ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا ، والمراد بسبقهم إلى الخيرات : ظفرهم بها ونيلهم إياها ... وجوز أن يراد بالخيرات : الطاعات ، وتكون اللام إما للتعليل ، والمعنى : يرغبون في الطاعات والعبادات ، وهم لأجلها فاعلون السبق أو سابقون الناس إلى الثواب والجنة ، أو يكون الجار والمجرور « لها » خبر المبتدأ ، و« سابقون » خبراً بعد خبر ، ومعنى « هم لها » : أنهم معدون لفعل مثلها من الأمور العظيمة ،

تقول لمن تطلب منه حاجة لا ترجى من غيره: أنت لها، وهذا من بليغ الكلام وجيده، ومنه قول الشاعر:

مشكلات أعضلت ودهت يا رسول الله أنت لها ..

« لا نكلف نفساً إلا وسعها » : الوسع : الطاقة ، سعى وسعاً لأنه يتسع على فاعله فعله ، ولا يضيق عليه ، فمن لم يستطع الصوم يفطر ، ومن لم يستطع القيام يصل قاعداً ، ومن لم يستطع القعود يوميء ، والجملة مستأنفة ، سيقت للتحريض على ما وصف به أولئك المشار إليهم ، من فعل الطاعات ، المؤدى لنيل الكرامات ، ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، أى : عادتنا جارية على ألا نكلف نفساً إلا ما فى وسعها وقدر طاقتها ، فالمراد أن هذا الذى وصف به الصالحون غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، أو أن المكلف إذا لم يبلغ أن يكون على صفة هؤلاء السابقين ، بعد أن يستفرغ وسعه ، ويبذل طاقته فلا عليه ، فقد فعل ما يستطيع فعله ، وهو عندئذ من المقتصدین ، وأولئك هم السابقون ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِنُ اللَّهَ ﴾ (١) . . . وقوله : « ولدينا كتاب ينطق بالحق » من تمام ما قبله من نفي التكليف بما فوق الوسع ، والمراد بالكتاب : صحائف الأعمال التى يقرأونها عند الحساب ، ومعنى « ينطق بالحق » : يظهر به الحق المطابق للواقع دون زيادة ولا نقص ، فيجزون على ما عملوا ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ومثله قوله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، وقيل المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، فإنه قد كتب فيه كل شىء ، وقيل المراد بالكتاب القرآن ، والأول أولى ، والجار والمجرور « بالحق » يتعلق بـينطق أو بمحذوف يقع حالا من فاعل ينطق ، والمعنى : ينطق

متلبساً بالحق ... « وهم لا يظلمون ، جملة مبينة لما قبلها ، من تفضله عز وجل ، وعدله في جزاء عباده ، أى : لا يظلمون بنقص ثواب أو بزيادة عقاب ، بل يجزون بقدر أعمالهم التى نطقت بها الصحائف بالحق ، ومنه قوله تعالى : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا » (١) ، وجوز أن تكون تقريراً لما قبلها ، أى : لا يظلمون بتكليف ما ليس فى وسعهم ولا يظلم غير السابقين بناء على قصور أعمالهم عن أعمال السابقين ، بل يكتب كل منها على مقاديرها وطبقاتها ... « بل قلوبهم فى غمرة من هذا ، إضراب عما قبله ورجوع إلى بيان حال الكفرة ، فالضمير للكفرة أى : بل قلوب الكفرة فى غفلة وغطاء وعماية عن هذا الذى بين فى القرآن من أن لديه تعالى كتابا ينطق بالحق ، ويظهر لهم أعمالهم السيئة على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، فالإشارة قيل إلى القرآن الكريم وما بين فيه مطلقاً ، وقيل : إلى ما عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة ، وقيل : إلى الدين بجملمته ، وقيل : إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، والأول أظهر ، وقد تقدم بيان معنى الغمرة ... « ولهم أعمال من دون ذلك ، أى : ولهم أعمال سيئة كثيرة ، من دون ذلك الذى ذكر ، وهو كون قلوبهم فى غمرة مما ذكر ، وتلك الأعمال هى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها طعنهم فى القرآن الكريم المشار إليه فى قوله تعالى : « مستكبرين به سامراتهجرون » ، وقيل : المراد بالغمرة : الكفر والشرك ، و « ذلك » إشارة إليه ، والمعنى : بل قلوبهم فى كفر بهذا ، ولهم أعمال دون الكفر ، وقيل : إن « ذلك » مثل « هذا » ، وقد أشير بهما إلى ما وصف به المؤمنون من الأعمال الصالحة ، والمعنى : ولهم أعمال متجاوزة متخطية لما وصف به المؤمنون ، وهى أضعاف ما وصفوا به مما وقع فى حيز الصلوات ، وهذا غاية الذم لهم ... « هم لها عاملون » جملة مقررة لما قبلها ، أى : مستمررون على فعلها ، قد اعتادوا عليها ، فلا يفتطمون عنها حتى تحقق عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم ، والضمير فى « لها » معمول لاسم الفاعل « عاملون » ،

والمعنى : هم عاملوها ، وقد قدم الضمير ودخلت عليه اللام للتقوية والتوكيد...
 « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ، اختاف العلماء في معنى « حتى » في هذه
 الآية فقيل : هي التي يبدأ بعدها الكلام وهي مع ذلك غاية لما قبلها ، كأنه قيل :
 لا يزالون يعملون أعمالهم إلى أن إذا أخذنا .. وقيل : هي ابتداء لا غير ، لأن
 « إذا ، الأولى والثانية يمنعان من أن تكون غاية « لعاملون » .. وقيل هي غاية
 عاطفة لما بعدها على ما قبلها ، والأول أولى قبولاً ، و « إذا ، الأولى شرطية ،
 وهي ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، وشرطها
 « أخذنا » ، وهي مضافة إليه ، وجزاؤها « إذا هم يجأرون » ، وهي معمولة له ،
 منصوبة به ، و « إذا » فيه فجائية نائبة مناب الفاء ، والجملة الشرطية مبنية لما قبلها ،
 والضمير في « مترفيهم » راجع إلى من تقدم ذكره من الكفار ، والمراد بالمترفين :
 المتنعمين منهم وهم الذين أمدهم الله بما تقدم ذكره من المال والبنين ، أو المراد :
 الرؤساء منهم ، والمراد بالعذاب : ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر ، أو عذاب
 الجوع الذي أصابهم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « اللهم اشد
 وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ، وقيل المراد بالعذاب
 عذاب الآخرة ، ورجح هذا بأن ما يقع منهم من الجوار ، إنما يكون عند عذاب
 الآخرة ، حيث يفاجئون عنده بالجوار ، فيجابون بالرد ، والإقناط من النصر ،
 وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد عنده جوار ، حسبما ينبيء قوله تعالى : « وَأَقْدَمَ
 أَخَذَ قَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا رَبَّهُمْ وَمَا يَتَضَرَّهُونَ » فإن المراد
 بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر حتماً ، وأما عذاب الجوع
 فإن قريشاً وإن تضرعوا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن لم يرد
 عليهم بالإقناط ؛ حيث روى أنه عليه الصلاة والسلام ، دعا بكشفه ، فكشف
 عنهم .. وقد أوجب عن هذا الترجيح بأن الجوار في اللغة : الصراخ والصياح ،
 قال الجوهرى : الجوار مثل الخوار ، يقال جأر الثور يجأر أى : صاح ، وقد
 وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عندهما عذبوا بالسيف يوم بدر ، وبالجوع في
 سنى الجوع ، ولبس الجوار هاهنا مقيداً بالجوار الذي هو التضرع بالدعاء ،

وخلاصة القول أنه إذا أريد بالجؤار الصراخ مطلقاً، صح أن يراد بالعذاب : عذاب بدر أو الجوع أو عذاب الآخرة، وإن أريد به الصراخ مع الاستغاثة والتضرع انصرف إلى عذاب الآخرة فحسب .، وضميراً الجمع في قوله : « إذا هم يجأرون » راجعان إلى كفار مكة باعتبار من بق منهم بعد أخذ المترفين بالعذاب .. « لا تجأروا اليوم » ، مقول لقول محذوف تقديره : قلنا لهم ، أو يقال لهم ، أو قل لهم يا محمد ، لا تجأروا اليوم ، والجملة مسوقة لتبسكيتهم وقطع أطماعهم ، وبيان عدم انتفاعهم بجؤارهم ، وفي ذكر « اليوم » زيادة في التينيس وتهويل العذاب .. « إنكم منا لا تنصرون » ، تعليل للنهي عن الجؤار ببيان عدم نفعه ، و « من » فيه ابتدائية أى : لا يلحقكم منا نصر ينجيكم مما أنتم فيه ، وجوز أن تكون صلة للنصر على تضمينه معنى المنع أو التجوز به عنه ، والمعنى : إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفصمكم جزعكم .. « قد كانت آياتى تلى عليكم » أى : قبل أن يأخذ مترفيسكم العذاب ، والمراد بالآيات : آيات القرآن الكريم .. « فكنتم على أعقابكم تنكصون » أى : تعرضون عند سماعها أشد الإعراض ، بدل أن تصدقوا وتعملوا بوجباتها ، وأصل النكوص : الرجوع القهقرى ، ومنه قول الشاعر :

زعموا أنهم على سبيل الحق وأنا نكص على الأعقاب

والأعقاب : جمع عقب وهو مؤخر الرجل ، ورجوع الشخص على عقبه رجوعه في طريقه الأولى كما يقال : رجع عوده على بدته ، وجعل بعضهم التقييد بالأعقاب من باب التأكيد كما تقول : أبصرتة بعينى ، وذقته بسمى ، وسمعته بأذنى بناء على أن النكوص : الرجوع القهقرى وعلى الأعقاب . وقرأ على كرم الله وجهه : « على أدباركم تنكصون » بضم الكاف ، والجار والمجرور على أعقابكم ، يتعلق بالفعل تنكصون ، أو بمحذوف ، وقع حالا من فاعله . والتقدير : فكنتم تنكصون راجعين متقهقرين على أعقابكم ... « مستكبرين به » : الضمير في « به » راجع إلى البيت العتيق وقيل للحرم ، والباء للسببية ، والننى سوغ الإضمار قبل

الذكر اشتهارهم بالاستكبار به واقتنارهم بولايته والقيام به، وكانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد، لأننا أهل الحرم وخدامه، وهذا ما عليه جمهور المفسرين، وقيل إن الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم، ويؤيده أن في قوله تعالى: «قد كانت آياتي تنزل عليكم، دلالة عليه - عليه الصلاة والسلام - فهو الذى يتلو عليهم تلك الآيات، وقيل الضمير يعود إلى القرآن المفهوم من الآيات، أو عليها باعتبار تأويلها به، والباء على هذين القولين إما للتعدية على تضمين الاستكبار معنى التكذيب، أو جعله مجازا عنه، وإما للسببية، لأن استكبارهم ظهر ببعثته صلى الله عليه وسلم، والجار والمجرور «به» يتعلق إما بستكبرين أو بسامرا أو تهجرون، وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول البيت يسمرون، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن، والطنن فيه، وفي النبی صلى الله عليه وسلم، و«سامرا» منصوب على الحال وهو اسم جمع كالحاضر والباقر، قال الواحدي: السامر الجماعة يسمرون بالليل أى يتحدثون، وقيل: هو مصدر وقع حالا، وحىء المصدر على وزن «فاعِل» نادر؛ ومنه العاقبة والعافية، والسمر فى الأصل: ظل القمر، وسمى بذلك لما فى مطلعته من سمرة، ويطلق على ما يقع على الشجر من ضوء القمر؛ وعلى سواد الليل؛ ثم أطلق على الحديث بالليل .. «تهجرون» من الهجر بفتح فسكون، بمعنى القطع والترك، والجملة فى موضع الحال أى: تاركين الحق أو القرآن أو النبی صلى الله عليه وسلم، أو تهجرون البيت ولا تعمرونه بما يليق به من العبادة، وجاء الهجر بمعنى الهديان يقال: هجر المريض يهجر هجرا إذا هذى، والمعنى على ذلك تهذون فى شأن النبی صلى الله عليه وسلم وأصحابه أو فى شأن القرآن أو ما يعنى جميع ذلك، وقيل ما كان بمعنى الهديان هو الهجر بفتححتين، وجوز أن يكون من الهجر بضم فسكون وهو الكلام القبيح، يقال: هجر فلان إذا أتى بهجر من الكلام عن قصد، وأهجر المريض إذا أتى بذلك من غير قصد، فالهجر بضم فسكون: الكلام المهجور لقبحة وفحشه... وقرئ «سمرا» بضم السين وفتح الميم المشددة، وسمارا، كما قرئ «تهجرون» بضم التاء وكسر الجيم من أهجر أى: أخش فى منطقته،

و «تهجرون» بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم المشددة من هجر بالتضعيف و «يهجرون» بالياء، وفيه التفات، و «سامرا تهجرون» حالان - كما قلت - من فاعل تنكصون، أو من الضمير في «مستكبرين» ...

الأسرار والمزايا البلاغية: في إيثار التعبير بالمضارع دون الاسم في قوله تعالى: «بآيات ربهم يؤمنون»، وقوله: «بربهم لا يشركون»، وقوله: «يؤتون ما آتوا»، وقوله: «يسارعون في الخيرات»، دلالة على التجدد والحدوث، فهم كلما وقفوا على آية آمنوا بها وأحدثوا تصديقا بمدلولها، وكلما عن لهم وبدلون من ألوان الشرك أعرضوا عنه وابتعدوا، وكلما بدا لهم ولاح لون من ألوان الخير فهم يؤتونه ويسارعون إليه.. وفي إيثار التعبير بالاسم في قوله تعالى: «من خشية ربهم مشفقون»، وقوله: «أنهم إلى ربهم راجعون»، وقوله: «وهم لها سابقون»، دلالة على الثبوت والدوام والاستمرار.. والتعبير بالماضي مكان المضارع في قوله: «آتوا»، للدلالة على تحقق الوقوع إذ الأصل: والذين يؤتون ما يؤتون، فقيل: «ما آتوا»، إشارة إلى تحقق الإتيان... وتكرار الرب في المواضع الثلاثة الأخيرة، والتعبير به دون الضمير للإشارة إلى معنى الترية، والإشعار بعنوان الربوبية، الذي يقتضى ويستلزم توحيد الألوهية، فذاك الربوبية تصلح لأن تكون دليلا وعللة لتوحيد الألوهية.. وفي تكرار الموصل إيدان باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة، وتزويل لاستقلالها - منزلة استقلال الموصوف بها، على الرغم من كون الموصوفين طائفة واحدة متصفة بما ذكر في حيز الصلوات من الأوصاف الأربعة، فتكرار الموصل يؤذن بما يمكن وراء كل صفة من محاسن ومزايا عديدة، وينبئ بكمال هذه المحاسن وتمام تلك الفضائل، وكأن كل صفة منها على حدة تغنى وتكفي لاستحقاق الموصوف بها عظيم الأجر وجزيل الثواب...

والتعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد «أولئك يسارعون في الخيرات»، للإشعار ببعدهم في الفضل وسمو منزلتهم، وهو يقع هنا أفضل موقع حيث

جاء عقب عدة صفات فأشار إلى أن الموصوفين قد استحقوا الجزاء المذكور من أجل اتصافهم بالصفات المتقدمة ، على نحو ما رأيت في قوله تعالى : « أولئك هم الوارثون » ... وقوله : « إن الذين هم من خشية ربهم ، إلى قوله : « أولئك يسارعون ، استئناف مسوق لبيان من له المسارعة في الخيرات ، إثر إقناظ الكفار عنها ، وإبطال حسابهم الكاذب أي : أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خصوصا ، دون أولئك الكفرة ، يسارعون في نيل الخيرات ، التي من جملتها الخيرات العاجلة ، الموعودة على الأعمال الصالحة ... وفي قوله تعالى : « يسارعون في الخيرات » أثبت للمؤمنين ما نفي عن الكفار بيد أنه غير الأسلوب حيث لم يقل : أولئك يسارع لهم في الخيرات ، بل أسند المسارعة إليهم لإيماء إلى استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ، وفضائل إقدامهم ، ومبادرتهم إلى الخير ، وإيثار التعبير بكلمة « في » دون كلمة « إلى » للإيذان بأنهم متقبلون في فنون الخيرات ، لا أنهم خارجون عنها ، متوجهون إليها بطريق المسارعة كما في قوله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » (١) ... وفي قوله تعالى : « ولدينا كتاب ينطق بالحق » مجاز بالاستعارة حيث شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه ، إذ الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق ، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه « ينطق » على سبيل الاستعارة المكنية ، وفي هذا مبالغة في وصفه بإظهار البيان وإعلان البرهان ... وفي قوله : « ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظنون » تهديد للعصاة ، وتأنيس للطبعين من الخيف والظلم ... وفي قوله : « بل قلوبهم في غمرة من هذا » استعارة تهريجية أصلية حيث شبه ما هم فيه من الجهالة والضلالة بغمرة الماء الذي يغمر الإنسان بجماع الغلبة والاستهلاك في كل ... ويجوز جعلها استعارة تمثيلية حيث شبهت حالهم في انصرافهم عن الحق وانغماسهم في الكفر والمعاصي ، بحال من

يدخل في الماء الغامر للهو واللعب ، بجامع تضييع الوقت مع الكدح والتعب في كل ... وتذكير الأعمال في قوله : « ولهم أعمال من دون ذلك » ينبيء بكثرتها وتنوعها أى : ولهم أعمال سيئة كثيرة متنوعة ... وفي قوله : « هم لها عاملون ، أوثر التعبير بالاسم « عاملون » دون الفعل للدلالة على الاستمرار والدوام ، وقد قدم المفعول « الضمير ، ودخلت عليه لام الجر للدلالة على التوكيد وتقوية الحكم ، إذ الأصل : هم عاملوها ... وفي قوله : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ، خصص المترفون بالأخذ مع أن العذاب لاحق بهم جميعا ، واقع على المترفين وغير المترفين ، لظهور انعكاس حالهم وانعكاس أمرهم غاية الظهور ، وكون ذلك أشق عليهم ، ولأنهم مع كونهم متمنعين محميين بحماية غيرهم من المتعة والحشم ، لقوا ما لقوا من الحالة الفظيعة ، فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم ، وفي التعبير بإذا ما يدل على تحقق وقوع الأخذ .. وقيل في قوله تعالى : « إذا هم يجأرون ، المراد بالجؤار : الجزع إذ هو سبب الصراخ والصياح ، فيكون مجازا مرسلا علاقته المسببية حيث عبر بالمسبب وأريد السبب ... وفي قوله تعالى : « ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، فصل بين الجملتين لسكال الاتصال ، إذ الجملة الثانية « هم لها عاملون ، مقرررة ومؤكدة للجملة الأولى « لهم أعمال من دون ذلك » .. وكذا فصل بين قوله تعالى « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ، وقوله عز وجل « هم لها عاملون ، إذ الجملة الثانية مبينة للجملة الأولى فقد أبرزت ووضحت إلى أى مدى هم مستمررون في أعمالهم السيئة ، ومواصلون لها ، إنهم مستمررون فيها إلى وقت أخذهم بالعذاب ، وعندئذ يجأرون ولات حين جؤار ، فالفصل بين الجملتين - كما ترى - لسكال الاتصال ... وفي قوله تعالى : « لا تجأروا اليوم ، إيجاز بالحذف حيث أضمر القول والتقدير : قلنا لهم : لا تجأروا اليوم ، والمراد بنهيمهم عن الجؤار : التبسكيت والتقريع ، فالجملة مسوقة لتبسكيتهم وإقناطهم وقطع أطعاهم ، وقد فصلت عما قبلها لسكال الانقطاع إذ الجملتان مختلفتان في الإنشاء والخبر لفظا ومعنى ، أو للاستئناف البياني « شبه كال الاتصال - إذ الجملة الأولى : « لإداهم يجأرون ، قد أبعث مها سؤال

تضمنته ، ووقعت الثانية جوابا له ، و كأن سائلا سأل : وهل ينفعهم ذلك الجوار ، فأجيب : لن ينفعهم ، بل يقال لهم تبكيئا وتقريبا : لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ... وقوله : « إنكم منا لا تنصرون » ، تعليلا للنهي عن الجوار ، وقيد النهي باليوم للتحويل والمبالغة في عدم نفع الجوار وزيادة في إقناطهم ... وفي قوله : « إنكم منا لا تنصرون » ، استعارة تبعية حيث استعير النصر لله ، واشتق منه « تنصرون » بمعنى تمنعون ، وذلك على جعل « من » صلة لتنصرون ، والمعنى : إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم ، أما إذا جعلت « من » ابتدائية على أن المراد : إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصره تمنعكم مما دهمكم من العذاب ، فلا مجاز عندئذ ... وفصل قوله عز قائلا : « قد كانت آياتي تتلى عليكم » ، عما قبله للاستئناف البياني ، حيث وقع تعليلا لعدم لحوق النصر من جهته تعالى بهؤلاء الكفرة الذين استمروا في الكفر والضلال حتى أخذهم العذاب ... وفي قوله تعالى : « فكنتم على أعقابكم تنكصون » ، استعارة تمثيلية حيث مثلت حالتهم في إعراضهم عن الحق بحال الراجعين القهقري على الأعقاب ... وفي قوله تعالى : « مستكبرين به » وضع للضمير موضع الظاهر : إذ الضمير في « به » يرجع إلى البيت العتيق أو إلى الحرم ، ولم يتقدم لأيهما ذكر ، والذي سوغ الإضمار قبل الذكر اشتهاهم بالاستكبار به ، وافترارهم بولايته والقيام به ، وكانوا يقولون : لا يظهر علينا أحد ونحن أهل الحرم وخدامه ، أما إذا جعل الضمير عائدا على القرآن أو على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا خروج على الظاهر عندئذ لفهم كل منهما من قوله تعالى : « قد كانت آياتي تتلى عليكم » ...

معاني الآيات الكريمة : لما نبى سبحانه وتعالى الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هم أهل للخيرات عاجلا وأجلا ، فوصفهم تبارك وتعالى بصفات أربع :-

الأولى : خوفهم من الله عز وجل ، وإشفاقهم من عذابه ، ووجلهم من مكره ، وذلك على الرغم من إحسانهم ، يقول الحسن البصرى : « إن المؤمن جمع

إحسانا وشفقة، وإن المنافع جمع إساءة وأمناء، وصدق الله العظيم: «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ»^(١).

الثانية: إيمانهم بآيات الله الشرعية والكونية، وتصديقهم بكونها دلائل وأن مدلولها حق، ويقينهم بأن ما شرعه الله حق، فهو إن كان أمرا فما يحبه ويرضاه، وإن كان نهيا فما يكرهه ويأباه..

الثالثة: ابتعادهم عن الشرك بأنواعه ظاهراً وخفياً، فهم يعلمون أنه لا إله إلا الله ولا نظير له ولا مثل فلا يعبدون غيره ولا يشركون به أحدا..

الرابعة: أنهم يعطون ما يعطون وهم خائفون وجلون ألا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط العطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، روى الإمام أحمد عن عائشة رضی الله عنها أنها قالت: يارسول الله «يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة»، أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ فقال لها صلى الله عليه وسلم: «لا يابنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل». .. أولئك المتصفون بتلك الصفات السامية هم الذي يسارعون في الخيرات ويبادرون بها وينافسون فيها، وهم لما سابقون، فهم الذين قال الله عز وجل في شأنهم: «وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ..»^(٢) يقول الإمام الفخر الرازي: واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن، فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي، والثانية دلت على التصديق بوحداية الله، والثالثة دلت على ترك الرياء في الطاعات، والرابعة دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله الوصول إليها.. ولما انجر

(١) سورة الأعراف آية ٩٩.

(٢) سورة فاطر آية ٣٢.

الكلام إلى ذكر أعمال المكلفين ، ذكر سبحانه وتعالى أنه لا يكلف أحدا من عباد ما لا يطيق تفضلا منه ولطفا ، وأن أولئك المخلصين لم يكلفوا بما ليس في قدرتهم ، فجميع التكليف في طاقة المكلفين وعلى المرء أن يبذل طاقته ويستفرغ وسعه للوصول إلى مراتب السابقين ، فإن فعل ذلك ولم يبلغ في فعل الطاعات مراتبهم فهو من المقتصدین ، قال عز قائلنا : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . . . » (١) . والله عز وجل لا يظلم أحدا من خلقه ، فهو يوم القيامة يحاسبهم على أعمالهم التي تفرغ بها صحائفهم « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْقُنْ بَحْرًا مَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (٢) ، « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » (٣) . .

ثم أخبر سبحانه وتعالى أن الكفرة في غفلة من هذا الذي بين في القرآن ، وأن لهم أعمالا سيئة من دون ذلك أي من دون أعمال المؤمنين المذكورة ، أو من دون أعمال الكفرة التي تقدم ذكرها ، أو من دون الشرك ، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي من جعلتها طعنهم في القرآن ، واستهزأهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافتخارهم بأنهم أهل البيت وخدام الحرم ، فقد كانوا يستكبرون بذلك ، ويسمرون فيه ويهجرونه فلا يعمرونه ، وسيظل هؤلاء الكفرة في غفلتهم وضلالهم وانغماسهم في المعاصي والأعمال السيئة ، حتى يدهمهم العذاب ويأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وعندئذ يندمون ويجارون إلى الله مستغيثين « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » (٤) وفي هذا الوقت لا ينفع الندم ولا يغني الجوار ، لقد أهملوا وأرخص لهم الزمام ، فلم يستجيبوا للداعي الحق واستمروا في طغيانهم حتى حقت عليهم كلمة العذاب ، ولما وقع عليهم العذاب وعانيوه آمنوا به ولات حين إيمان ، لقد مضى الوقت الذي كان ينفع

(٢) سورة الجاثية الآية ٢٩ .

(١) سورة فاطر الآية ٣٢ .

(٤) سورة المؤمنون الآية ١٠٧ .

(٣) سورة الكهف الآية ٤٩ .

فيه الإيمان ويشمر، أما الآن فلا، وأنتم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستهجلون^(١) ولذا يقال لهم على سبيل التوبيخ والنتعير والتهكميت : « لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ مِنْكُمْ مِنْهَا لَا تُنصِرُونَ » « اِحْسَاوا فِيهَا وَلَا تُنْكَلُوا »^(٢) لقد تليت عليكم الآيات فأعرضتم ، ودعيتهم إلى الإيمان فأبيتهم « قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنكِرُونَ » ، « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ »^(٣) فليس أمامكم الآن إلا ذوق العذاب ، واللكث في جهنم والخلود « وَفَادُوا بِأَمْثَالِكُمْ نَيْفِضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا رَبُّونَ »^(٤) ..



(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَمُرُوا بِرُسُولِهِمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ . وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ . بَلْ أَنْتِنَاهُمْ بِهِ كَرِيمٌ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ . أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْجَاهُ رَبُّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّا كَابُونَ . وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ بِعَمَهُونَ . وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ . حَتَّىٰ إِذَا فَعَخْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْأَهُمْ فِيهِ

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٠٨ .

(١) سورة يونس الآية ٥١ .

(٤) سورة الزخرف الآية ٧٧

(٣) سورة غافر الآية ١٢

مُبْلِسُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَنْفُودَ قَلِيلًا
مَا تَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ
الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُعِيبُ وَهُوَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . بَلْ قَالُوا
مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا إِذَا مِثَقْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَمَا إِنَّا
كَمِيمُونَ . لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ۝ ۰۰۰

اللغة والإعراب : « أفلم يدبروا القول ، الهمة لإنكار الواقع واستقبحه ،
والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، ويدبروا أصله : يتدبروا
فقلبت التاء دالا وأدغمت الدال في الدال ، والمراد بالقول : القرآن ، والمعنى :
أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يتدبروا القرآن ليقفوا
على ما فيه من وجوه الإعجاز ، ويعلموا أنه الحق من ربهم ، فيؤمنوا به ،
ومثله قوله تعالى : « أَفَلَا يَعِدُّوْنَ الْقُرْآنَ أَنْ هُوَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهِمْ » (١) .
« أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ، أم منقطعة بمعنى بل والهمة ، ففيها معنى الإضراب
والانتقال من الإنكار والتوبيخ بما ذكر ، إلى الإنكار والتوبيخ بأمر آخر ، وهو نفي
المجيء المغاير لما جاء آباءهم الأولين ، فالمراد بإنكار وقوع هذا المجيء إلا إنكار الواقع ،
أي : بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين ، حتى استبعده وأنكروه ،
فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال ، فالمعنى أن مجيء الكتب من جهته
تعالى ، إلى الرسل عليهم السلام ، لينذروا بها الناس ، سنة قديمة ، لا يكاد يتسنى
لإنكارها ، وأن مجيء القرآن على طريقته ، فمن أين ينكرونه ؟ وقيل : المقصود
تقرير أنه لم يأت آباءهم الأولين رسول ، فلذلك أنكروه » والمعنى : بل أجاءهم
من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين ، فكان ذلك سببا لاستنكارهم القرآن ،

ومثله قوله تعالى : « لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَانَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ » (١) وقوله عز وجل : « وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ نَذِيرًا مِنْ نَذِيرٍ » (٢) .

والرأى الأول وهو الإثبات المحيى أرجح وأولى قبولاً ، لأن الآية قيدت الآباء بالأولين ، وهؤلاء الأولون قد أُنذروا وجاءتهم الرسل ، أما هم وآباؤهم الأقربون ، فلم يأتهم من نذير قبله - صلى الله عليه وسلم - ولم يأتهم من كتب يدرسونها ، وهذا ما تقرره الآيتان الكريمتان ، وأما قوله عز قائلنا : « لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَانَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ » (٣) فيجوز المعنى : الإثبات والنفي ، الإثبات على جعل « ما » موصولة أو مصدرية ، ويكون المراد بالآباء : الأولين ، والنفي على جعل « ما » نافية ، ويكون المراد بالآباء : الآخرين ...

وقيل المعنى : أفلم يتدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته وقصصه أن ينزل بهم مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين ، أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباؤهم الأولين حين خافوا الله تعالى فآمنوا به وبكتبه ورسوله ، فالمراد بآبائهم الأولين : المؤمنون كإسماعيل وعدنان وقحطان ، وكان وصفهم بالأولين على هذا : قيد لإخراج الآخرين كما ذكرت ... « أم لم يعرفوا رسوله فهم له منكرون ، لإضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخر وهو إنكار الوقوع أيضاً ، والمعنى : بل ألم يعرفوه عليه الصلاة والسلام بالصدق والأمانة وحسن الأخلاق إلى غير ذلك من الكجالات اللانقة بالأنبياء عليهم السلام ، والفاء في : « فهم » للسببية ، لتسبب الإنكار عن عدم المعرفة ، فالجملة داخلة في حيز الإنكار ، ومآل المعنى : هم عرفوه بالكجالات اللانقة بالأنبياء عليهم السلام

(٢) سورة - بدأ آية ٤٤ .

(١) سورة القصص آية ٤٦

(٣) سورة يس آية ٦ .

فكيف ينكرونه ... « أم يقولون به جنة ، انتقل إلى توبيخ آخر ، والإنكار للواقع كالأول ، والمعنى : بل أيقولون به جنة أى : جنون مع أنهم قد علموا أنه عليه الصلاة والسلام أرحم الناس عقلا وأثقبهم رأيا وأوفرهم رزاة ، ولكنه جاء بما يخالف هواهم فدفعوه وجحدوه تعصبا وحمية ... ثم أضرب سبحانه وتعالى عن ذلك كله فقال عز قائلًا : « بل جاءهم بالحق ، أى : ليس الأمر كما زعموا فى حق القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم بل جاءهم بالحق ، أى بالصدق الثابت الذى لا محيد عنه ، والمراد به التوحيد ، أو الدين القيم ، وهو دين الإسلام الذى تضمنه القرآن ، والجار والمجرور « بالحق » متعلق بمحذوف وقع حالًا من فاعل « جاء » والمعنى : بل جاءهم متلبسا بالحق ... « وأكثرهم للحق كارهون » لما جبلوا عليه من التعصب وبكال الزيف والانحراف عن الصواب والبعد عن الجادة ، ولذا كرهوا هذا الحق الواضح الجلى ، والظاهر أن الضمائر لقريش ، وتقيد الحكم بأكثرهم قيل لأن منهم من أبى الإسلام واتباع الحق حذرا من تعيير قومه ، وأن يقولوا صبا ، أو ترك دين آباءه ، لا كراهة للحق من حيث هو حق ، وقد يرد على هذا القول بأن من أحب شيئا كره ضده ، فمن أحب البقاء على الكفر فقد كره الانتقال عنه إلى الإيمان ضرورة ، ولذا قيل يحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفي ، أو يراد بالضمير فى « أكثرهم » الناس كافة لا قريش فقط ، فيكون نظير قوله تعالى : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ مُؤْمِنِينَ » (١) ، وقوله هز وجل : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » (٢) ويؤيد ذلك قوله عز قائلًا : « بل جاءهم بالحق » ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم جاء الناس كلهم وبعث إلى الكافة ، وقد يقال : حيث كان المراد إثبات الكراهة للحق على سبيل الاستمرار ، وعلم الله أن فيهم من يؤمن ويتبع الحق لم يكن بد من تقييد الحكم بالأكثر ... « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات

والأرض ومن فيهن، لو حرف امتناع لامتناع أى : امتناع الجواب لامتناع الشرط، فقد امتنع فساد السموات والأرض ومن فيهن لامتناع اتباع الحق أهواءهم، والواو للاستئناف، فالجملة مسوقة لبيان أنه لو جاء الحق على ما يرون ويريدون، لكان ذلك مستلزماً للفساد العظيم وخروج نظام العالم عن الصلاح بالسلبية، والمراد بالحق : الحق الذى جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل مآل المعنى : لو اتبع النبي صلى الله عليه وسلم أهواءهم لجاءهم بالشرك بدل ما أرسل به لأفسد الله العالم لفرط غضبه سبحانه وتعالى وهو فرض محال من تبيده عاينه الصلاة والسلام ما أرسل به من عند ربه، وقيل المراد بالحق : القرآن أى لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد العالم، وجوز أن يكون المراد بالحق : الأمر المطابق للواقع فى شأن الألوهية، والمعنى لو وافق الأمر المطابق للواقع أهواءهم بأن كان الشرك حقاً، لفسدت السموات والأرض حسبما قرر فى قوله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » (١) وقيل المراد بالحق : الله تعالى، والمعنى عليه : لَوْ كَانَ اللَّهُ تعالى يتبع أهواءهم ويفعل ما يريدون فيشرع لهم الشرك ويأمرهم به لم يكن سبحانه إلهاً ففسد السموات والأرض، أو لو فعل الله تعالى ما يوافق أهواءهم لاختل نظام العالم، لأن آراءهم متناقضة وعقولهم فاسدة، والذى تميل إليه النفس والمراد أولى بالقبول هو تفسير الحق بالدين الخالص الذى شرعه الله لعباده، وأن المعنى : ولو ورد الحق متابعاً لأهوائهم موافقاً لفساد مقاصدهم لحصل الفساد، والمراد بقوله : « ومن فيهن » : من فى السموات والأرض من المخلوقات وسبب فساد المسكين من بنى آسهم ظاهر، وهو ذنوبهم التى من جملتها الهوى الخائف للحق، وأما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع، لأنهم مدبرون فى الغالب بذوى العقول، فلما فسد ذوى العقول فسد ما عداهم... د بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون، انتقال من تشنيعهم بكرامة الحق إلى تشنيعهم بالإعراض عما جبت عليه النفوس من الرغبة فيما فيه خيرها، والمراد بالذكر : القرآن الذى هو شرفهم وشرفهم،

قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » (١) ، والمعنى : بل أتيداعهم بذكرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل لإقبال بدل أن يعرضوا عنه ، وقيل المراد بذكرهم : القرآن الذى ذكر فيه ثوابهم وعقابهم ، وقيل المعنى : بذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين ، وقيل الذكر هو الوعد والتحذير ، وقرئ : « أتيتهم » بقاء التكلم بدل نون العظمة ، وبقاء الخطاب أى : أتيتهم يا محمد . كما قرئ « بذكرهم » ، و « نذكرهم » بالنون والتشديد ، والجملة على هذه القراءة الأخيرة فى محل نصب على الحال ... « فهم عن ذكرهم معرضون » أى : فهم بما فعلوا من الاستكبار والنكوص والهجر ، عن هذا الذكر المختص بهم معرضون ، لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال ، وفى التركيب ما يدل على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوزة إلى غيره فهم معرضون عن ذكرهم وما فيه الخير لهم ، مقبلون على ما عداه ... « أم تسألهم خراجاً فخراج ربك خير » انتقال إلى توبيخ آخر ، فأم منقطعة ، والمعنى أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة خراجاً فلذلك لم يؤمنوا ؟ والخراج : الأجر والجميل ، وهو الذى يكون مقابلاً للدخل ، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك خراج ، والخراج : غالب فى الضريبة على الأرض ففيه إشعار بالكثرة واللزوم ، قال المبرد : الخراج مصدر والخراج اسم ، وسئل أبو عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج ما لزمك ، والخراج ما تبرعت به ، واللزوم بالنسبة إليه تعالى تفضل ووعد ، وقيل : الخرج أعم من الخراج ، وسأوى بينهما بعضهم ، وقرأ ابن عامر : « خراجاً فخرج » ، وحمزة والكسائي : « خراجاً فخراج » ، وجملة : « فخراج ربك خير » تعليل لنفى السؤال المستفاد من الإنكار ، أى : أنت لا تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة حتى يعرضوا عنك ويرفضوا دعوتك ، لأن ما رزقك الله فى الدنيا والآخرة خير من ذلك لسعته ودوامه ، وعدم تحمل منة الرجال منه ...

« وهو خير الرازقين ، جملة مقررة لما قبلها من كون خراجها سبحانه وتعالى خيراً ، فإن من كان خير الرازقين ، يكون رزقه خيراً من رزق غيره ... » وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ، أى إلى طريق واضحة تشهد العقول السليمة بأنها مستقيمة غير معوجة ، فالصراط فى اللغة : الطريق ، وسمى الدين طريقاً لأنها تودى إليه ... ثم وصفهم عز وجل بأنهم على خلاف ذلك فقال « وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كبون ، قيل المراد بهم : كفرة قريش الذين تحدث عنهم الآيات السابقة ، وصفوا بذلك تشبيها لهم ، فهم منهمكون فى الدنيا ، يزعمون أنه لا حياة بعدها ، وهذا يشعر بظلمة الحكم ، فإن الإيمان بالآخرة ، وخوف ما فيها من الدواهي ، من أقوى الدواعى إلى طلب الحق ، وسلوك سبيله ، وقيل المراد بهم : ما يعمهم وغيرهم من الكفرة المنكرين للحشر ... » عن الصراط ، المراد به الصراط المستقيم الذى يدعوهم النبي صلى الله عليه وسلم إليه أو جنس الصراط ولو كان معوجاً ، ورجح هذا بأنه أدل على كمال ضلالهم وشدة غوايتهم ، وقيل المراد به : الصراط الممدود على متن جهنم ، وهذا ليس بقول ... « لنا كبون ، النكوب والنكب : العدول والميل ، يقال : نكب عن الطريق يذكب نكوباً إذا عدل عنه ومال إلى غيره ، ومنه النكباء للريح بين ريحين ، سميت بذلك لعدولها عن المهاب ، والجار والمجرور « عن الصراط ، يتعلق باسم الفاعل « ناكبون » ... ثم بين سبحانه وتعالى أنهم مصرون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال : « ولو رحمتناهم وكشفنا ما بهم من ضر ، أى : من قحط وجدب وسوء حال ، قيل هو ما عراهم بسبب أخذ مترفيهم بالعذاب يوم بدر ، أعنى الجرح عابهم ، وذلك بإحيائهم وإعادتهم إلى الدنيا بعد القتل ، أى : ولو رحمتناهم وكشفنا ضرهم برجوع مترفيهم إليهم ، وقيل هو ما هم فيه من شدة الخوف ، من القتل والسبي ومزيد الاضطراب من ذلك ، لما رأوا ما حل بمتريهم يوم بدر ، وكشف هذا عنهم يكون بأمر النبي صلى الله عليه بالكف عن قتالهم وسبيهم بعد ، أو بنحو ذلك ، وقيل المراد بالضر : عذاب الآخرة

أى : لو رحوا وكشف عنهم عذاب النار وردوا إلى الدنيا لعادوا الشدة لجاجهم وتمردهم ، واستظهر أبو حيان أن المراد به : القحط والجوع الذى أصابهم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، والكثير على أنه الجوع الذى أصابهم من منع ثمامة الميرة عنهم ، وذلك أن ثمامة بن أثال الحنفي جاءت به إلى المدينة سرية محمد بن مسلمة حين بعثها صلى الله عليه وسلم إلى بنى بكر ابن كلاب فأسلم بعد أن امتنع من الإسلام ثلاثة أيام ، ثم خرج معتمراً فلما قدم بطن مكة لبي ، وهو أول من دخلها مليباً ، ولذا قال الحنفي مفتخراً :

ومنا الذى لبي بمكة معلناً برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم

ثم قال لأهل مكة : والله لا يأتىكم من اليمامة - وكانت ريفاً لأهل مكة - حبة حنطة ، حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع ، حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلمز ، وهو الصوف والوبر ، كانوا يأخذونه فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه ، فقال أبو سفيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك الله والرحم : ألسنت تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال : بلى ، قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع . فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة رضى الله عنه : خل بين قومي وبين ميرتهم ، ففعل ، وقال البعض إن « لو » تبعدهذا القول ... وجواب لو قوله : « للجوا فى طغيانهم » ، أى : لتنادوا فى ضلالهم وفرط كفرهم واستكبارهم ، وأصل اللجاج : التمدادى فى العناد ، ومنه اللجة بالفتح لتردد الصوت ، ولجة البحر تردد أمواجه ، ولجة الليل تردد ظلامه ... « ويعمهم » يترددون ويتذبذبون ويتخبطون فى الضلال ، يقال : عمه كنع وفرح عمها وعموها وعموهة وعمها نا ، والجملة فى موضع نصب حال من فاعل « لج » ، أى : للجوا فى طغيانهم عامين . . . وجملة « ولقد أخذناهم بالعذاب » جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها ، والعذاب قيل هو الجوع الذى أصابهم فى سنى القحط ، وقيل المرض وقيل القتل يوم بدر ، وقيل الموت : وهى نفس الأقوال التى قيلت فى الضر فى الآية السابقة ... فما استكانوا ، أى : ما خضعوا وما تذللوا ،

بل أقاموا على ما كانوا فيه من التبرد على الله والانهماك في العصيان ، فالمراد بالخضوع الذي فسرت به الاستكانة : الانقياد لأوامر الله عز وجل والإيمان به ، واستكان على وزن «استفعل» من الكون ، وأصل معناه : انتقل من كون إلى كون كاستحجر ، أى : انتقل إلى جنس الحجارة ، ثم غلب العرف على استعماله في الانتقال من كون التكبر إلى كون الخضوع ، وهو من باب قر واستقر ، يقال : كنت لك واستكنت ، أى : خضعت ، وهى لغة هذيلية ، ولا يجعل من «استفعل» المبنى للمبالغة مثل استعصم واستحسر ، إلا أن يراد المبالغة في النفي لانهى المبالغة ، وقيل هو من السكين أى : اللحمة المستبطنة في الفرج لذلة المستكين ، وجوز الزمخشري أن يكون على وزن «افتعل» من السكون والآلف للإشباع كما فى قول الشاعر :

وأنت من الغوائل حين ترى ومن ذم الرجال بمنزح

وقول الآخر :

أعوذ بالله من العقاب الشائلات عقد الأذنان

ورد هذا بأن الإشباع المذكور ليس بفصيح فهو من ضرورات الشعر وينبغي أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه ... «وما يتضرعون» أى : وما يخشعون لله فى الشدائد عند إصابتها لهم ، ولا يدعونه متضرعين لرفعها ، والمشهور أن المراد بالعذاب فى هذه الآية : ما نالهم يوم بدر من القتل والأسر ، وقدم ربك فى قوله تعالى «حتى إذا أخذنا مترفهم بالعذاب» أن بعض العلماء فسروا العذاب فيها أيضاً بعذاب يوم بدر ، فهل يرد على هذا الرأى لزوم المناقاة بين ما هناك من قوله تعالى «إذا هم يجأرون» ، وما هنا من نفي الاستكانة لربهم ونفي التضرع إليه ؟ والجواب أن التناقى غير وارد لأمرين :

أولهما : أن المراد بالجوار - كما تقدم - إما مطلق صراخ وإما الصراخ

باستغانة، والمراد بالاستكانة الانقياد لأمر الله تعالى، وبالتضرع ما كان عن ضمير الفؤاد، فلا تتأني إذا بين إثبات الجوار وبين نفي الاستكانة والتضرع، وكان التعبير هناك بالجوار للإشارة إلى أن استغائهم كانت أشبه بأصوات الحيوانات...

فإنهما : يحتمل أن يكون ما هناك من الجوار لبيان حال المقتولين وما هنا من نفي الاستكانة والتضرع لبيان حال الباقين من الكفرة... « حتى إذ افحننا عليهم بابا ذا عذاب شديد، المراد بالعذاب : عذاب الآخرة كما ينبيء عنه التهويل بفتح الباب والوصف بالشدة، و « حتى » غائية ابتدائية فعلی الرغم من كونها غاية للنفي السابق، فهي مبتدأ لما بعدها من مضمون الشرط والجواب والمعنى : هم مستمرّون على هذه الحال حتى إذا فحننا عليهم يوم القيامة بابا ذا عذاب شديد... « إذا هم فيه مبلسون » « إذا » لجائية واقعة في جواب إذا الأولى، والضمير في « فيه » يعود إلى الباب أو إلى العذاب أو إلى الفتح المفهوم من قوله : « فحننا » : و « مبلسون » متحIRON، لا يدرون ما يصنعون، آيسون من كل خير، أو ذوو حزن من شدة البأس، ومثله قوله تعالى : « وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبَيْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ^(١) » ، وقوله عز وجل : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ^(٢) » ، وقيل : هذا الباب استيلاء النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عليهم يوم الفتح، وقد آيسوا في ذلك اليوم من كل ما كانوا يتوهمون من الخير، وقيل هو الجوع الذي أكلوا فيه العليز، وقيل هو القتل يوم بدر، وأظهر هذه الأقوال هو القول الأول وهو أن المراد بالعذاب عذاب جهنم كما ينبيء بذلك سياق الآيات الكريمة... وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة، أي : خلقها لكم، وامن بها عليكم، لتحسوا بها الآيات التزييلية والكونية وتفكروا، وإنما خص

السمع والأبصار والأفئدة ، لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق
 بغيرها ، وقدم السمع والبصر لتعلقهما بالمحسوسات ، وأخرت الأفئدة لتعلقها
 بالمعقولات ، فعلى العباد أن يعملوا سمعهم وأبصارهم في آيات الله ، فيسمعوا
 وينظروا ، ثم يتفكروا بقلوبهم ، ومن لم يعمل هذه النعم فيما خلقت له ، فهو بمنزلة
 عادها ، كما قال تعالى : ﴿ تَبَا أَعْيُنُهُمْ تَتَخَفَتُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أُفُئِدَتُهُمْ مِنْ
 شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١)
 « قليلا ما تشكرون ، أى : شكرا قليلا تشكرون ، « قليلا » منصوب على
 أنه صفة لمصدر محذوف ، و « ما » زائدة للتأكيد ، والقلة على ظاهرها ، بناء
 على أن الخطاب للناس بتغليب المؤمنين ، وجوز أن تكون القلة بمعنى النفي
 بناء على أن الخطاب للمشركين على سبيل الاتعات ، والمعنى : لا يشكرون
 البتة ، كما يقال لجاحد النعمة : ما أقل شكره ! أى : لا يشكر ، وقيل الخطاب
 للمؤمنين ، وليس بشيء ، والرأى أن الخطاب للمشركين خاصة مع جواز كون
 القلة على ظاهرها ، أى : يشكرون شكرا قليلا حقيرا ، لا يعتد به باعتبار
 تلك النعم الجليلة ؛ لأن العمدة في الشكر صرف تلك القوى التي هي في أنفسها
 نعم باهرة إلى ما خلقت له من التدبر والتأمل والتفكير الهادى لصاحبه ...
 « وهو الذى ذرأكم فى الأرض ، : بشكم فيها كما تبث الحبوب لتنبث ..
 « وإليه تحشرون ، أى : تجتمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ، فتخرجون جماعة ،
 وتحشرون إليه ، لا إلى غيره ، فالحشر لا يقال إلا فى الجماعة ... « وهو الذى
 يحيى ويميت ، على جهة الانفراد والاستقلال ، وفى هذا تذكير بنعمة الحياة ،
 وبيان الانتقال منها إلى الدار الآخرة ... « وله اختلاف الليل والنهار ، أى :
 هو وحده المؤثر فى اختلافهما أى : تعاقبهما واختلافهما نورا وظلاما ، من
 قلوبهم : فلان يختلف إلى فلان أى يتردد عاياه بالجيء والذهاب ، أو تخالفهما
 زيادة ونقصانا ، أو تكررهما يوما بعد يوم وإيلة بعد ليلة ... « أفلا تعقلون ،

كـنه قدرته وتـفـكـرون في ذلك ، فالهمزة للإنكار ، والفاء عاطفة على مقدر ، والمعنى : ألا تفكرون فلا تعقلون أو : أتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل قدرة الله على كل شيء ، وقرئ « يعقلون » على الاتفات إلى الغيبة ، لحكاية سوء حال المخاطبين ، وهم الكفرة ... ثم بين سبحانه وتعالى أنه لاشبهة لهم في إنكار البعث إلا اللبث بحبل التقليد ، المبني على مجرد الاستبعاد فقال : « بل قالوا مثل ما قال الأولون ، بل إضراب عما سبق ، من حثهم على النظر والتأمل ، أى : لم يتأملوا بل قالوا ، « الأولون » هم آباؤهم ، ومن دان بدينهم من الكفرة المنكرين للبعث ، ثم بين ما قاله الأولون : « قالوا إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أنا لمبعوثون ، أى : إذا بلينا ، وصرنا ذرات ناعمة ، وعظاما نخرة أنا لمخلوقون ثانية ؟ هذا بعيد ولن يكون .. » « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل » : اسم الإشارة للبعث الذى أنكروه ، والجار والمجرور « من قبل » يتعلق بالفعل « وعد » باعتبار إسناده إلى كل من المعطوف عليه والمعطوف ، وصح هذا بالنسبة لهم وللآباء ؛ لأن الرسل أخبروا بالبعث بالنسبة إلى جميع من يموت ، أو يتعلق بمحذوف دل عليه « وعد » المذكور ، والمعنى : لقد وعدنا هذا وعد آباؤنا من قبل ... و « قبل » ظرف زمان مبني على الضم ... « إن هذا إلا أساطير الأولين » ، أى : أكاذيبهم التى سطورها ، جمع أسطورة كأحدوثة وأعجوبة ، والأساطير : الأباطيل والأكاذيب ، وقيل جمع أسطار ، وأسطار جمع سطر ، فهو جمع الجمع ، والمعنى : ما كتبه الأولون وسطره فى كتبهم ، والأول أولى ؛ لأن صيغة « أفعولة » تجيء لما فيه التلهى ، فيكون حينئذ كأنه قيل : ما هذه إلا مكتوبات كتبت للتلهى ولا طائل تحتها ...

الأسرار والمزايا البلاغية : الاستفهام فى قوله تعالى : « أفلم يدبروا القول » وقوله عز وجل : « أم يقولون به جنة » استفهام إنكارى تويخى ، فهو لإنكار ما وقع عنهم وتويخهم عليه ، وإبراز وبيان أنه ما كان ينبغى أن يقع ، والفاء فى الاستفهام الأول للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، والمعنى : أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يدبروا القرآن ؟ ما كان

ينبغي لهم هذا ، بل كان ينبغي أن يقبلوا على الحق ، ويتأملوا القرآن ، ليقفوا على أوجه إعجازه ، ويعلموا أنه الحق من ربهم ... أم يقولون برسولهم جنّة ؟ ما كان ينبغي منهم هذا القول ، وهم يعلمون أنه أرجحهم عقلا وأثقبهم رأيا ، وأوفرهم رزاة ... وفي قوله تعالى « أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين » وقوله عز قائلًا : « أم لم يعرفوا رسولهم ، الاستفهام فيهما : استفهام إنكارى تكذيبى ، بمعنى أن هذا لم يقع ، فما جاءهم من جنس ما جاء الأولين ، تلك سنة الله فى إرسال رسله ، وليس ما جاءهم بدعا حتى ينكروا ويكذبوا ... ورسولهم هم أعرف الناس به وبصدقه وأمانته ، فعدم معرفتهم له صلى الله عليه وسلم غير واقعة ، ولذا كان ينبغي عليهم أن يبادروا إلى الإيمان بدعوته ، بدل أن يكذبوه ويتهموه بالجنون ... والإضافة فى قوله : « رسولهم » تنبى بكمال علمهم ومعرفتهم به ، ففيها مزيد من التوبيخ والتسكيت لهم ، حيث تخلوا وأعرضوا عن رسالته وهم أعلم الناس به ... وفى قوله تعالى : « فهم له منكرون » : قدم المعمول « له » لإفادة الاختصاص إذ المعنى فهم له لا لغيره منكرون ، وقد دخلت اللام على هذا المعمول لإفادة التوكيد وتقوية الحكم . والإنكار ليس لذات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما لدعوته ورسالته ، فالكلام على حذف مضاف ، والمعنى : فهم لدعوته أو لرسالته منكرون ... وفى قوله تعالى : « بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » أظهر فى مقام الإضمار إذ الأصل : وأكثرهم له ، وذلك للباغية فى ذمهم وتوبيخهم وللدلالة على كراهيتهم لكل حق ، أى : وأكثرهم للحق ، أى حق كان لا لهذا الحق فقط ، وهذا أظهر فى ذمهم وتوبيخهم ، فال فى الحق الأول للعهد ، وفى الثانى للاستغراق أى الجنس ، والتعبير بالاسم « كارهون » دون الفعل ، للدلالة على ثبات الكراهية ودوام ملازمتها لهم .. وفى إسناد « اتبع » ، إلى الحق فى قوله : « ولو اتبع الحق أهواءهم » مجاز عقلى علاقته إسناد المبني للفاعل إلى مفعوله ، والأصل : لو اتبع صاحب الحق وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، ولنا أن نجعل المجاز اغويًا فى « اتبع » ، حيث عبر بالاتباع وأريد الموافقة ، أى : لو وافق الأمر المطابق للواقع « الحق »

أهواهم... وفي قوله تعالى: «بل أتيناكم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون»، الأصل: فهم عنه، فوضع الظاهر موضع المضر لما فيه من زيادة التشنيع والتعريب، وفي تقديم الجار والمجرور «عن ذكرهم»، دلالة على القصر أي: فهم عن ذكرهم خاصة معرضون لا عن غير ذلك، لما لا ينبغي الإقبال عليه والاعتناء به، وفي التعبير بالاسم «معرضون»، ما يدل على دوام الإعراض وملازمته لهم وثباتهم عليه. كما في قوله: «فم له منكرون»، «وأكثرهم للحق كارهون»،... وفي إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة في قوله: «بل أتيناكم بذكرهم»، بعد إسناد المجيء بالحق إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، في قوله: «بل جاءهم بالحق»، تنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم، وتنبيه إلى عظم منزلته وسمو مكانته وكونه بمثابة عظمة من الله عز وجل، وفي إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه عليه الصلاة والسلام بعنوان الحقية، وعند إسناده إلى الله تعالى بعنوان الذكر، ما لا يخفى من اللطائف والمزايا، التي اقتضاها المقام، فإن التصريح بحقيقته المستلزمة لحقية من جاء به، هو الذي يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطلون في شأنه صلى الله عليه وسلم، وأما التشریف الكامن وراء الذكر فإيما يليق به تعالى، ولا سيما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أحد المشرفين بذلك الذكر... وفي قوله تعالى: «أم تسألهم خرجا فخرج ربك خير»، ذكر الرب وإيثار التعبير به في هذا المقام، وإضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام فيه ما لا يخفى من حسن تعليل الحكم المذكور، وهو نفي المسألة المستفادة من الاستفهام الإنكارى، فضلا عن تشریفه صلى الله عليه وسلم وإعلاء منزلته بتلك الإضافة، وفي إيثار التعبير عن رزق الله تعالى وعظاته بالخرج دون الخرج «فخرج ربك»، ما يدل على كثرته وسعته، وأما قراءة من قرأ «خراجا فخرج ربك»، ففيها إشعار بقوة تمسكهم وشدة انغماسهم في الكفر، وخط من قدر خراجهم، إذ المعنى فالشيء القليل منه عز وجل خير من كثيرهم فما بالك بكثيره تبارك وتعالى، كما أن في التعبير عن رزقه تعالى وعظاته «بالخراج»، عقب قوله: «أم تسألهم خرجا»، مشاكلة لطيفة، إذ

الخرج هو الجعل والأجر المقابل للدخل ، ويقال لكل ما يخرج لغيرك ،
والخراج مالزك ، والخرج ما تبرعت به ، واللزوم بالنسبة لله تعالى تفضل
منه ووعد - كما ذكرنا - ، وعطاء الله تعالى لا يسمى خرجا ولا خراجا وإنما
يسمى رزقا ، وقد ذكر بلفظ « الخراج » لوقوعه في صحبة خرجهم في قوله :
« أم تسألهم خرجا ، على سبيل المشاكلة التحقيقية ، إذ المشاكلة هي ذكر المعنى
بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا ... وفي قوله تعالى : « وإنك
لتدعوهم إلى صراط مستقيم ، استعير الصراط المستقيم للدين الحق ، فالحق
السليمة تشهد باستقامته وليس فيه شائبة اعوجاج توجب الاتهام ، ووراء هذه
الاستعارة ، وتأكيده الخبر بأن واللام « إنك لتدعوهم ، ما يدحض إنكار
الكفرة ويدفع جحودهم ، وكذا التأكيد في قوله : « وإن الذين لا يؤمنون
بالآخرة عن الصراط لناكبون ، » فهم ينكرون أنهم ناكبون عن الصراط ،
والتأكيد يدفع هذا الإنكار ويرز ضلالهم وغوايتهم ، وقد عبر بالظاهر « عن
الصراط ، في موضع المضمر ، إذ الأصل أن يقال : « عنه لناكبون ، لتقدم
ذكر الصراط ، وذلك لإبراز كمال ضلالهم وشدة غوايتهم ، لما في وسعهم
بالنكوب عن الصراط ، من توبيخ وتضليل ، وليس في الوسم بالضمير ما في
الوسم بالظاهر ... وفي قوله تعالى « فما استكانوا الرجيم وما يتضرعون ، عبر
عن التضرع بالمضارع ليفيد الدوام ، إلا أن المراد دوام النفي لانه الدوام ،
أي : ليس من عادتهم التضرع إليه أصلا ، يقول الزمخشري : « وإن قلت هلا
قيل : وما تضرعوا أو فما يستكينون ؟ قلت : لأن المعنى محناهم فما وجدت
منهم عقيب المحنة استكانة ، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا
حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد (١) ، ... وفي قوله تعالى : « حتى
إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ، وصف العذاب بالشدة وأثر
التعبير بالحرف « على ، دون اللام للدلالة على التحويل والتفطيع وقوة الأخذ ،
وانظر إلى الحديث عن الجنة وتمتع أبوابها للمؤمنين الأخيار « حَنَاتِ بَدَنٍ
مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ » (٢) فالجنة مفتحة لهم تسكريما وحفاوة ، أما العذاب

يفتح على الكفرة تحذيرا وإهانة وإذلالا... وفي قوله تعالى: «وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة» قدم السمع لكثرة فوائده، وأفرد لأنه مصدر في الأصل، ولم يجمعه الفصحاء في الأكثر، وقيل: أفرد لأنه يدرك به نوع واحد من المدركات وهو الأصوات، بخلاف البصر فإنه يدرك به الأضواء والألوان والأكوان والأشكال وغيرها، وبخلاف الفؤاد فإنه يدرك به أنواع شتى من التصورات والتصديقات، وفي تأخير الأفئدة عن السمع والبصر دزية جليلة وهي التنبيه إلى ترقب وسائل الإدراك، فالسمع والبصر مقدمان في الإدراك، إذ بهما تدرك الأدلة الحسية التي تسمع وتشاهد، ثم يعي القلب ويدرك الأمور العقلية... وفي قوله تعالى: «قليلًا ما تشكرون» نكرت الصفة وحذف موصوفها الإشارة إلى قلة الشكر، وزيدت «ما» لتأكيد تلك القلة، والمعنى: تشكرون شكرا قليلا لا يعنى ولا ينفع، كما في قوله تعالى: «فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ» (١) رجوز أن يكون كفاية عن عدم الشكر البتة. وتقدم الجار والمجرور في قوله: «وإليه تحشرون» وقوله عز قائلا: «وله اختلاف الليل والنهار» للدلالة على القصر الحقيقي أي: تحشرون إليه خاصة لا إلى غيره، وله سبحانه وتعالى خاصة اختلاف الليل والنهار فهو المؤثر في اختلافهما دون سواه... وقد كرر الاسم الموصول والضمير العائد إلى الله عز وجل وهو الذي «في الآيات الثلاثة لزيادة التنبيه إلى تلك النعم التي امتن بها تبارك وتعالى على عباده ولزيادة توبيخ وتبكيك الكفرة الذين أعرضوا عن ذكر الله ورفضوا الهداية على الرغم من تعدد نعم الله عليهم، ولذا قال في ختامها «وإنهم لا يعقلون» فهو استفهام إنكارى لتوبيخهم، إذ أهملوا النظر والتأمل الذي يهديهم إلى سبيل الرشاد، ولاحظ الالتفات من الخطاب في تلك الآيات إلى الغيبة في قوله: «بل قالوا» فهو التفات الغاضب المتوعد، حيث يؤذن الانتقال من خطابهم والتحول عنهم إلى الغيبة بإبعادهم وتخلي الله عز وجل عنهم،

ثم لاحظ الطباق بين « يحيى ويعيت » وبين « الليل والنهار » وما يبنى به من إبراز قدرة الله عز وجل وعظيم سلطانه ... وفي قوله تعالى « بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا إذا ماتنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون » فصل بين الجملتين لكمال الاتصال حيث فسر القول الثانى ما قبله وفصل ما فيه من إجمال ، وكذا النصل بين الجملتين الواقعتين مقولا للقول الثانى « إذا ماتنا ... أإنا لمبعوثون » ، ولاحظ ما يبنى به طى البعث من السؤال الأول وإبرازه فى الثانى من شدة إنكار هؤلاء الكفرة للبعث ، وكأنهم يأبون النطق به خبرا « نبعث » ولو منغيا منكرًا ، ويريدونه سؤالًا مثارًا « أإنا لمبعوثون ؟ » ... ولمزيد من التعجيب والإنكار والاستبعاد كان اسم الإشارة وتكراره وقصره — وهو مشار به إلى البعث — على كونه أساطير الأولين فى قوله تعالى : « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » ، وقد قدم فى هذه الآية الكريمة قوله « نحن وآباؤنا » على اسم الإشارة « هذا » ، وفى سورة النمل قدم اسم الإشارة « لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل »^(١) وذلك وقاء بحق المقام ، وهذان دقائق النظم الكريم ، فلما كان الغرض الذى تعمد وقصد بالكلام هنا هر حكاية مقالة الآباء والتشبت بها « بل قالوا مثل ما قال الأولون » قدموا هم وآباؤهم على اسم الإشارة المشار به إلى البعث ، ولما كان الغرض الذى تعمد وقصد فى سورة النمل هو البعث « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَمْ خَرَجُونَ »^(٢) قدم اسم الإشارة ، يقول صاحب الكشف : « فإن قلت : قدم فى هذه الآية « هذا » على « نحن وآباؤنا » وفى آية أخرى قدم « نحن وآباؤنا » على « هذا » ، قلت : التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر ، وأن الكلام إنما سيق لأجله ، فى إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذى تعمد بالكلام ، وفى الأخرى على

أن اتخاذ المبعوث بذلك البصدد، (١) . . .

معاني الآيات الكريمة : بعد أن أبرزت الآيات السابقة ما قد صنعه المشركون لإزاء القرآن الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الهجر والاستكبار والاستهزاء ، أخذ سبحانه وتعالى في بيان أسباب إقدامهم على الكفر ورفضهم قبول الحق ، على سبيل التبيكيت والتوبيخ والإنكار ، فذكر أنهم لم يتدبروا القرآن ، إذ لو تدبروه لبدت لهم وجوه إعجازه ، ولأقبلوا على الإذعان والامتثال ، ثم أضرب عن هذا إلى استفهام إنكاري آخر : أجاهم بما لم يأت آباؤهم الأولين ؟

وحقيقة الأمر أن ما جاءهم به صلى الله عليه وسلم هو شرع الله الذي شرعه لعباده « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » (٢) إنه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولذا فلا وجه لرده وإنكاره ، ثم أضرب عن هذا إلى سؤال آخر : ألم يعرفوا رسولهم ، فهم لذلك ينكرون دعوته ؟ كيف وهم أعلم الناس بصدقه وأمانته ورجاحة عقله ، ثم يضرب عن ذلك إلى اتهامهم له بالجنون ، وقد جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ، ولهذا يرفضونه ويعرضون عنه ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسد نظام العالم وذلك لاختلاف وفساد أهوائهم ، ولا أدل على فساد عقولهم من إعراضهم عن ذكرهم ، الذي فيه فخرهم وشرفهم ، وهو القرآن الذي أنزله الله على رسولهم الأمين ، ثم ينفي عز وجل أن يكون سبب كفرهم وإعراضهم عن الحق أن الرسول يطلب منهم مالا وأجرا على تبليغه رسالة ربه ، إنه لا يسألهم خرجا ؛ لأن رزق ربه خير ، وهو خير الرازقين ، بل يدعوهم إلى صراط ربه المستقيم ، وإن الكفرة عن هذا الصراط لنا كيون ، ولذا قد اتفتت كل هذه الأمور التي كان يمكن أن تكون سببا لرفضهم الدعوة ، فالسبب الحقيقي

إذا؟ إنه العناد والمكابرة وكرهه الحق ، ولذا يقول صاحب الكشف :
 « قد أزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذى أرسل إليهم
 رجل معروف أمره وحاله ، مخبور سره وعلنه ، خليق بأن يجتنب مثله للرسالة
 من بين ظهرانيهم ، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة
 يباطل ، ولم يجمع ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ، ولم
 يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم ، مع إبراز الممكنون
 من أدواتهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم بدين الآباء الضلال من
 غير برهان ، وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله
 بالمعجزات والآيات النيرة ، وكرهاتهم للحق ، وإعراضهم عما فيه حظهم من
 الذكر (١) ، ثم يخبر عز وجل عما جبل عليه هؤلاء الكفرة وأنه لو كشف
 عنهم ما يحل بهم من قحط وجوع أو عذاب وضر لما انقادوا للحق بل سيستمرون
 متمادين في طغيانهم وضلالهم ، ولقد ابتلاهم الله بالمصائب والشدائد ، وأخذهم
 بالعذاب ، فأردهم ذلك عما كانوا فيه قبل الأخذ من كفر وضلال ، بل
 استمروا في غيهم وطغيانهم « فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَآكِنَ
 قَسَتْ قُلُوبُهُمْ » (٢) لقد أصابهم في بدر ما أصابهم من العذاب ، وحل بهم بدعاء
 النبي صلى الله عليه وسلم ما حل من الجوع والقحط ، وقد عرفت قصة ثمامة
 ابن أثال ، التى يروى أن هذه الآية نزلت فيها ، فقد حال ثمامة بين مكة والميرة
 حتى أكلوا العلهز جوعاً ، وعلى الرغم من كل هذا ما استكانوا للربهم
 وما يتضرعون ، بل هم مستمرون فى كفرهم حتى يفتح عليهم عذاب الآخرة ،
 وعندئذ يتخبطون ، وييشسون من كل راحة ، وينقطع بهم كل أمل ورجاء ...
 ثم يعدد الله عز وجل بعض نعمه على عباده ، فقد أنشأ لهم السمع والابصار
 والأفئدة ، ليتأملوا ويتدبروا ويشكروا ، فما كان من هؤلاء شكر ، وذراهم
 فى الأرض لياً كلاً من رزقه ، وعليهم أن يتذكروا أن مصيرهم إليه ، وأنهم

(٢) سورة الأنعام آية ٤٣ .

(١) الكشف ج ٣ ص ٣٨ .

مستولون عما قدموا من خير أوشر، ويخبر عز وجل عن آثار قدرته ، فهو الذي يحيى ويميت ، وسخر الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر حينئذ ، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان ... « لَا الشَّمْسُ يَدْبِيهِ لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »^(١) فهل تدبروا تلك النعم وتاملوا آثار قدرته عز وجل ؟ كلا لقد لجوا في طغيانهم ، وقالوا مثل ما قال الأولون ، أنكروا البعث واستبعدوه وتعجبوا من وقوعه : «إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ؟ أَلَا نَلْمَعُونَ ؟ ... » « إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَجْرَةً » فآلوا تلك إذا كرهة خامرة^(٢) ، ونسبوا هذا البعث إلى الأساطير التي تحكى للتلهي بها ، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ، نسوا خلقهم الأول ولو تأملوه ما أنكروا البعث ، لأن من خلقهم ابتداء قادر على إعادتهم ... « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ مَا مِتُّ سَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا . أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلمْ يَكْ شَيْئًا »^(٣) . . . « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ »^(٤) ...

* * *

« قُلْ لِيَنَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِيهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِيهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِيهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ . بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَاوَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَاتَّعَلَّقَ

(٢) سورة النازعات آية ١١ ، ١٢

(١) سورة يس آية ٤٠

(٤) سورة يس آية ٧٨ ، ٧٩

(٣) سورة مريم آية ٦٦ ، ٦٧

بِعَضُّهُمْ عَلَى بَعْضِ سُجَّانِ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَقَدْ آتَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . قُلْ : رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ . رَبِّ مَا لَمْ يَجْعَلْ لِي
فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْبِكَ مَا نَعِدُّهُمْ لِقَادِرُونَ . اذْفَعُ
بِالَّتِي مِى أَحْسَسُ السَّيِّئَةَ مَحْنُ أَعْلَمُ عَمَّا يَحْفُفُونَ . وَقُلْ : رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ
هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ . . .

اللغة والإعراب : « قل لمن الأرض ومن فيها ، أى : قل يا محمد لأهل مكة
هذا القول ، والمراد بمن فى الأرض : الخلق جميعا ، وعبر بمن تغلبا للعلاء
على غيرهم .. » إن كنتم تعلمون ، أسلوب شرط جوابه محذوف دل عليه
الاستفهام قبله ، والتقدير : إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك ، وفى هذا
تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم إذ عبدوا أصناما لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا تغنى
شيئا ، وجعلوها شركاء لله الذى له ملك السموات والأرض ومن فىهن . . .
« سيقولون لله » أى : لا بد لهم أن يقولوا ذلك ، لأنه معلوم بيديه العقل ،
ولا يتأتى لعاقل أن ينزاع فيه ، واللام فى قوله : « لله ، الملك باعتبار الخلق . . .
« قل ، عند اعترافهم بذلك ، تبكيئا لهم ، وحثا على التدبر والتفكير ، وترغيبا
فى النظر والتأمل : « أفلا تذكرون » الهمزة للإنكار ، والفاء عاطفة على
مقدر دل عليه السياق ، أى : أتعلمون أو أتقولون ذلك فلا تذكرون أن من
فطر الأرض ومن فيها ابتداء هو قادر على إعادتهما ثانيا ، فإن البدء ليس بأهون
من الإعادة ، بل الأمر بالعكس فى قياس العقول ، و « تذكرون ، أصله :
تذكرون فحذفت تاؤه ، وقد قرئ : « تذكرون ، على الأصل . . . » قل من
رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، أعيد لفظ « الرب ، تنويها بشأن
العرش ، ورفعاً لمحلّه من أن يكون تبعا للسموات ، وجوداً أو ذكراً ،
و « العظيم ، بالجر نعت للعرش ، وقرئ بالرفع نعتا للرب . . . » سيقولون لله ،
قرئ فى هذه الآية وفيما بعدها باللام « لله ، واللام الملك كما سبق ، وقرئ

بغير اللام « سيقولون الله » ، أما في السابقة فلم يقرأ إلا باللام ، والقراءة بغير اللام في الآيتين نظرا للفظ السؤال ، وباللام نظرا للمعنى ، وكلا الأمرين جائز ، يقال : من صاحب هذه الدار ؟ فيجاب : « زيد » نظرا للفظ السؤال ، أو « لزيد » نظرا للمعنى ؛ لأن معنى من صاحب هذه الدار ؟ : لمن هذه الدار؟ وكلا الأمرين وارد في كلامهم ، فمن ذلك قول الشاعر :

إذا قيل من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجرد قلت لخالد
وأنشد الزجاج :

وقال السائلون لمن حفرتم فقال المخبرون لهم وزير

« قل أفلا تتقون ، أى : أتعلبون ذلك فلا تتقون عذابه ولا تخافون على أنفسكم من عقابه ، حيث تتركون العمل بموجب العلم ، وتكفرون به تعالى ، وتنكرون ما أخبر به من البعث ، وتثبتون له سبحانه وتعالى شريكا ... »
« قل من بيده ملكوت كل شيء » مما ذكر ومما لم يذكر ، والملكوت : الملك وزيادة التاء المبالغة نحو جبروت ورهبوت ، والمراد : الملك الواسع الشامل ...
« وهو يجير » أى يغيث ويمنع من يشاء بمن يشاء ... « ولا يجار عليه » أى : لا يمنع أحد أحدا من عذابه عز وجل ، ولا يقدر على نصره وإفائته ، يقال : أجزت فلانا ، إذا استغاث بك فأغثته وحميته ، وأجزت عليه إذا حميت عنه ودافعت ، فتعدية الفعل بعلى لتضمينه معنى النصرة أو الاستعلاء ... « فأنى تسحرون ، أنى : اسم استفهام بمعنى : كيف أو من أين أو متى ، وتسحرون أى : تتخدعون أو تصرفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أنتم عليه من البغى ، والمعنى : كيف يخيل لكم الحق باطلا والصحيح فاسدا ، والخادع لهم هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما ... « بل أتيناكم بالحق ، لضراب عن قولهم « إن هذا إلا أساطير الأولين » ، والحق هو القول الصدق فى أمر التوحيد والبعث والجزاء ، إذ هو الأمر الواضح الذى يحق اتباعه ، وقرىء بقاء الخطاب

وبناء النكلم « آيتهم » ، فعلى القراءة بنون العظمة « آيتناهم » ، وبناء التكلم « آيتهم » ، يرجع الضمير إلى المولى عز وجل ، وعلى القراءة بباء الخطاب « آيتهم » ، يرجع الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم « ولأنهم لكاذبون » ، فى قولهم : « إن هذا إلا أساطير الأولين » ، وفيما ينسبونه إلى الله سبحانه وتعالى من الولد والشريك ، وفيما يزعمونه مما ينافى التوحيد ... « ما اتخذ الله من ولد ، لتزفه عز وجل عن الاحتياج وتقديسه تعالى عن المماثلة » وما كان معه من إله ، يشاركه فى الألوهية ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، « ومن » ، فى الموضوعين زائدة لتأكيد النفي ، وكان تامة ، والمعنى : ما اتخذ الله ولدا وما وجد معه إله « إذا لذهب كل إله بما خلق » ، أى : لاستبد بالذى خلقه ، واستقل به تصرفاً ، وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهما التطالب والتجارب والتغالب ... « ولعلا بعضهم على بعض » ، أى : غلب القوى على الضعيف وقهره وأخذ ملكه ، كعادة الملوك من بنى آدم ، وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلهاً ، وإذا تقرر عدم إمكان المشاركة فى ذلك ، وأنه لا يقوم به إلا واحد . تعين أن يكون هذا القائم هو الله سبحانه وتعالى ، والكلام على حذف شرط وقعت « إذا » ، فى جوابه ، والتقدير : لو كان مع الله آلهة كما تزعمون إذا لا نفرد كل إله بخلقه واستبد به ، وقال أبو حيان : « إذا » ، حرف جواب وجزاء ويقدر قسم يكون « لذهب » جواباً له ، والتقدير : والله إذا ، أى : والله إذا كان معه من إله لذهب كل إله بما خلق ، وقيل إن « إذا » ليست حرف جواب وجزاء ، وإنما هى إذا الشرطية حذفت جملتها التى تضاف إليها — جملة الشرط — وعوض عنها التنوين كما فى « يومئذ » ، والأصل : إذا كان معه من إله لذهب كل إله بما خلق ، والتعبير « إذا » ، دون « إن » ، التى تناسب هذا المقام من قبيل مجازاة الخصم ، « وما » ، فى قوله : « بما خلق » ، موصولة حذف عائدها ، والمعنى : بالذى خلقه ، وقيل هى مصدرية والمعنى : بخلقه ، ولم يستدل على انتفاء اتخاذ الولد ، إما لغاية ظهور فساد ، أو للاكتفاء بالدليل الذى أقيم على نفي أن يكون معه سبحانه وتعالى إله ، بناء

على ما قيل من أن ابن الإله يلزم أن يكون إلهاً ، إذ الولد يكون من جنس الوالد
وجوهره ، فهو ينازع أباه في ملكه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ... سبحان
الله عما يصفون ، مبالغة في تنزيهه تعالى عن الولد والشريك ، فسبحان الله معناه :
تنزيهه تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به ، فهو اسم فعل يقوم مقام المصدر
« تسديحاً ، تقول : سبحت الله تسديحاً أى : نزهته تنزيهاً ، وما ، إما اسم
موصول حذف عائده أو مصدرية ، والمعنى : سبحان الله عن الذى يصفونه
به أو عن وصفهم ، وقرئ : « تصفون ، بتاء الخطاب ... » عالم الغيب والشهادة
أى : كل غيب وشهادة ، فهو سبحانه مختص بعلم الغيب والشهادة ، وأما غيره
فهو وإن علم الشهادة لا يعلم الغيب ، وهذا على ما قيل إشارة إلى دليل آخر على
انتفاء الشريك بناء على توافقه المسلمين والمشركين في تفردته تعالى بذلك ،
« وعالم ، قرئء بالجر على أنه بدل من لفظ الجلالة أو صفة له ، لأنه أريد به
الثبوت والاستمرار فيتعرف بالإضافة ، وقرئء بالرفع على أنه خبر لمبتدأ
محذوف أى هو عالم ، وروى عن بعضهم أنه كان يخفض إذا وصل القراءة
ويرفع إذا ابتدأها ... » فتعالى عما يشركون ، تفريع على كونه تعالى عالماً
بالغيب والشهادة ، فهو كالنتيجة لما أشار إليه من الدليل على انتفاء الشريك ،
والفاء عاطفة على معنى ما تقدم ، كأنه قيل علم الغيب فتعالى ، كقولك : زيد
شجاع فعظمت منزلته ، أى : شجع فعظمت ، ويحتمل أن يكون المعنى على
إضمار القول ، أى : فأقول تعالى عما يشركون ، فالفاء للاستئناف على أنه إخبار
مستأنف ، يفيد أنه عز وجل متعال عن أن يكون له شريك فى الملك ، « وما ،
فى قوله « عما يشركون » إما موصولة أو مصدرية كما فى قوله : « عما يصفون » ...
« قل رب إما ترى » أى : إن كان ولا بد أن ترى ما يوعدون من العذاب
المستأصل لهم ، « فإن » شرطية ، « وما ، زائدة ، زيدت هى والنون فى « ترى »
للتوكيد ، و « ترى » : يتعدى لمفعولين ، المفعول الأول ضمير المتكلم العائد
إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، والثانى « ما ، الموصولة فى قوله « ما يوعدون » ،
فما : موصولة وقعت مفعولاً ثانياً لرى ، وقد حذف عائدها ، والمعنى : قل رب

إن ترينى الذى يوعدونه من العذاب الدينوى المستأصل لهم ، وأما العذاب الأخرى فلا يناسب السياق ... « رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ، النداء « رب ، معترض بين الشرط والجواب مبالغة فى التضرع ، والفاء واقعة فى جواب « إن ، والمعنى إن أنزلت بهم النعمة يارب فأجعلنى خارجا عنهم ولا تجعلنى قرينا لهم فيما هم فيه من العذاب ... « وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون » نرى : يتعدى للمفعولين كما فى « ترينى ، الأول الكاف ، والثانى « ما » الموصولة والجار والمجرور « على أن نريك ، يتعلق بنجر إن « لقادرون ، والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يرى رسوله صلى الله عليه وسلم عذابهم ، وأسكنه عز وجل يؤخره لعلمه أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمن ، أو لأنه لا يعذبهم والرسول فيهم : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » (۱) ، وقيل قد أراه سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة ، ولا يخفى بعد هذا القول ؛ لأن المتبادر أن يكون ما يستحقونه من العذاب الموعود عذابا هائلا مستأصلا ، لا يظهر على يديه صلى الله عليه وسلم للحكمة الداعية إلى عدم ظهوره ... « ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، أى : ادفع بالخصلة التى هي أحسن الخصلة السيئة ، قالوا : المراد بالتي هي أحسن شهادة أن لا إله إلا الله ، والسيئة الشرك وقيل التى هي أحسن السلام والسيئة الفحش ، وقيل الأول الموعظة والثانى المنكر ، وقيل : الرجل يقول لأخيه ما ليس فيه فيجيبه : إن كنت كاذبا فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لك وإن كنت صادقا فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لى ، واختار والأولى : العموم وأما هذه الأقوال المذكورة فى معنى التى هي أحسن ، والسيئة فهى من قبيل التمثيل ، والمفاضلة فى قوله « بالتي هي أحسن ، على حقيقتها ، فهى مفاضلة بين الحسنات التى تدفع بها السيئة ، فإنها قد تدفع بالصفح والإغضاء ، ويقنع فى دفعها بذلك ، وقد يزداد على الصفع الإكرام والإحسان إلى المسيء ، وقد تبلغ الغاية ببذل الاستطاعة فى إكرام المسيء والإحسان إليه ، فهذه الأنواع

من الدفع كلها دفع بحسنة، ولكن أحسن هذه الحسنات في الدفع هي الأخيرة لاشتغالها على عدد من الحسنات : الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأحسن الحسنات في دفع السيئة ، وفي هذا من الحث له صلى الله عليه وسلم إلى ما يليق بشأنه الكريم من محاسن الأخلاق ما لا يخفى ، وهو أبلغ من أن يقال : ادفع بالحسنة السيئة لمكان المفاضلة، وجوز أن تكون المفاضلة بين الحسنة والسيئة ، على معنى أن الحسنة في باب الحسنات أزيد من السيئة في باب السيئات ، ويطرد هذا في كل مفاضلة بين ضدتين ، كقولهم : العسل أحلى من الخل ، فإنهم يعنون أن العسل في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة ، ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعب الماجن أنه قال : نشأت أنا والأعمش في حجر فلان ، فما زال يعلو وأسفل حتى استويينا ، هني أنهما استويا في بلوغ كل منهما الغاية ، أشعب بلغ الغاية على السفلة في التذلل ، والأعمش بلغ الغاية في التعلل ، والاول أولى ، وهو أن المفاضلة جارية على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل (١) ... والآية قيل لأنها منسوخة بآية السيف ، وقيل : هي محكمة ، لأن الدفع المذكور مطلوب مالم يؤد إلى ثلم دين أو إضرار بروة ، وقيل : هي محكمة في حق هذه الأمة فيما بينهم منسوخة في حق الكفار ... ونحن أعلم بما يصفون ، ما : إما مصدرية أو موصولة حذف عاندها ، أى : نحن أعلم بوصفهم إياك ، أو بالذى يصفونك به مما أنت على خلافه ، أو بما يصفون ويذكرون من الشرك والتكذيب ، وفيه وعيد لهم بالعقوبة ، وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ... «وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، الهمزات : جمع همزة اسم مرة من الهمز وهو الدفع باليد أو غيرها وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم ، قال تعالى : «وإِذَا مَنَّ الشَّيْطَانُ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزَغٌ فَاسْتَمِعِدْ بِإِقْدِهِ» (٢) ، وقال جل وعلا :

(١) انظر الكشف ج ٣ ص ٤١ ، ٤٢

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٠ .

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ .. »^(١) يقال : همزه ولززة ونمخه أى : دفعه، ومنه مهماز الرائض ويطلق على حديدة تربط في مؤخر رجله ينخس به الدابة لتسرع أو لتثب ، وإطلاق ذلك على الوسوسة والحث على المعاصى لما بينهما من الشبه الظاهر ، فالشياطين تحث على المعاصى وتغرى عليها ، كما تهمز الراضة الدواب حثالها على المشى ، ونحو الهمز الأز في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسَّوْهُمْ أَزًّا »^(٢) أى : تهيجهم وتزعجهم وتغريهم على المعاصى ، وقيل الهمز كلام من وراء الفقا واللمز المواجهة، وجمع الهمزات للترات أو لتنوع الوسوس أو لتعدد الشياطين ... « وأعوذ بك رب أن يحضرون » ، أمره عز وجل أن يتعوذ بربه من حضور الشياطين بعدما أمره أن يتعوذ من همزاتهم ، والمعنى : وأعوذ بك رب أن يكونوا معى فى حال من الأحوال ، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة ، والإغراء على الشر ، والصرف عن الخير ، وإلى هذا العموم ذهب ابن زيد وهو أولى ، لأن الآية لم تخصص الاستعاذة من حضورهم بحال من الأحوال ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما تخصيص حال الصلاة ، وحال قراءة القرآن ، وعن عكرمة حال حلول الأجل ، وذلك لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة من حضور الشياطين ، ولا سيما الحال الأخيرة، ولذا قيل فى الدعاء : اللهم لى أعوذ بك من النزغ عند النزغ ...

الأسرار والمزايا البلاغية : فى الآيات الثلاث الأولى نجد أن الأسئلة فى صدورنا وكذا فى عجزها يهد السابق فيها لاحق ويقرر اللاحق السابق ، وقد روعى فيها قضية الترقى ، تأمل : « قل لمن الأرض ومن فيها ؟ . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ . قل من بيده ملكوت كل شىء . وهو يجير ولا يجار عليه ؟ ، تجد أنه قد سئل أو لاعمن له الأرض ومن فيها ،

هـ قِيلَ « من ، تغليبا للعقلاء ، ولأنه يلزم أن يكون له غيرهم من طريق الأولى ، ثم سئل عن له السموات السبع والعرش العظيم ، والأرض بالنسبة له كالأشياء ، وقد أعيد لفظ الرب تنويها بشأن العرش ، ورفعاً لمحلّه من أن يكون تبعاً للسموات وجوداً أو ذكراً ، ثم سئل عن بيده ملكوت كل شيء ، فأُتِيَ بأعمّ العام وكلمة الإحاطة ، وأوثر التعبير بالملكوت وهو الملك الواسع الشامل ، وقيل : « بيده » تصويراً وتخيلاً فهي استعارة تمثيلية تبرز قدرته جل وعلا وهيمنته على ملكوت كل شيء ، وكذلك روعيت هذه النكتة ، نكتة التهديد والتقريع والترقى ، في الأسئلة التي وردت في عجز الآيات الكريمة على سبيل الإنكار والتوبيخ ، تأمل : « قل أفلا تذكرون ؟ . قل أفلا تتقون ؟ . قل فأنى تسحرون ؟ » عبروا أولاً بعدم التذكر فإن أيسر النظر يكفى في انحلال عقدهم ، ثم بعدم الالتقاء وفيه زجر ووعيد ، ثم بالتعجب من خدع عقولهم حيث تتخيل الباطل حقاً والحق باطلاً ، وأنى لها عندئذ التذكر والتقوى ، وهذا الترقى أبلغ لما فيه من زيادة التخويف والتحذير ... وفي قوله تعالى : « إن كنتم تعلمون ، حذف جواب الشرط لدلالة الاستفهام عليه أى : إن كنتم من أهل العلم ومن العقلاء أو عالين بذلك فأخبروني به ، وفيه من المبالغة في الاستهانة بهم وتقدير فرط جهالتهم ما لا يخفى ، وبما يقوى ذلك بالإضافة إلى حذف جواب الشرط ، التعبير « إن ، التى تفيد ندره وقوع الشرط أو بعده دون « إذا » التى تفيد تحقق وقوعه ، والإخبار عن جواب الاستفهام قبل أن يجيبوا « سيقولون لله » ، وتكرار الأسلوب حيث ذكر عقب الاستفهام الأول ثم عقب الاستفهام الثالث .. وفى قوله تعالى : « فأنى تسحرون » استعارة تبعية حيث شبه ما يقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للسحور من التخليط والتخبط ثم اشتق من السحر « تسحرون » بمعنى تخدعون وتصرفون عن طاعته وتوحيده مع اعترافكم بأنه وحده المتصرف المالك ... وفى قوله : « وهو يجير ولا يجار عليه » طباق سلب له أثره البالغ فى إبراز قدرة الله عز وجل الذى يمنع من يشاء بمن يشاء ولا يمنع أحد أحداً من عذابه جل وعلا ...

وفي قوله تعالى : « بل أتيناكم بالحق وإنهم لكاذبون » ، أكد الخبر الثاني بثلاثة مؤكدات : إن واللام واسمية الجملة ، ولم يؤكد الخبر الأول ، على الرغم من أن المشركين ينكرون الخبرين معا : ينكرون أن ما جاءهم هو الحق ، وينكرون أنهم كاذبون ، بل يعتقدون أنهم صادقون وعلى الحق يمشون ، وذلك يرجع إلى وضوح الأدلة على كون ما أتاهم هو الحق ، وفيه حث لهم على تأمل تلك الأدلة وتدبرها ، وبخاصة ما في الآيات السابقة فهي من الوضوح بـ« كان ، وتأملها يهديهم إلى الإذعان ، ويوصلهم إلى الإقرار بأن ما أتاهم هو الحق ، ولذا ترك تأكيد الخبر الأول ، وأما تأكيد الثاني ، فلكونهم في حاجة إلى قرع أسماعهم بهذا التأكيد ، دفعا لإنكارهم ، وتحريكا لعقولهم ، التي تعامت عن رؤية الحق الواضح ، وأبت إلا العناد والمكابرة ... وفي قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله » ، زيدت « من » في الموضوعين للمبالغة في تأكيد النفي ، نفي اتخاذ الولد ووجود الشريك ... وفي قوله تعالى : « إذا ذهب كل إله بما خلق ، إيجاز بالحذف حيث حذف لو وشرطها والمعنى : لو كان معه آلهة - كما تزعمون - إذا ذهب كل إله بما خلق ، وذلك على اعتبار « إذا » حرف جزاء ، أما على اعتبارها شرطية فيكون شرطها محذوفاً وقد عوض عنه التنوين ، والتقدير : إذا كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق ، والتعبير إذا عندئذ من قبيل مجازاة الحصر ، والسر البلاغي وراء حذف الشرط هو المبالغة في تزيه الله - جلا وعلا - عن الشرك ، والرغبة في ألا ينطق بتلك الجملة : « كان معه آلهة » ولو فرضا ... وفي قوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة فتعالى » ، طباق بين الغيب والشهادة وهذا الطباق يبرز كمال علم الله عز وجل الذي أحاط بكل شيء علما ، وقد أوتر التعبير بالاسم في قوله « عالم » ، وبالفعل في قوله : « تعالى » ولم يقل : عالم الغيب والشهادة متعال أو يعلم الغيب والشهادة فتعالى ، وذلك للدلالة باستخدام الاسم على دوام علمه واستمراره ، وبالفعل على تجدد تزيهه عز وجل وتقديسه عن الشركاء بتجدد المخلوقين ، فالكل مأمور بتقديسه وتزيهه ، تبارك ربنا وتعالى عما يشركون ...

وفي قوله تعالى: «رب إما ترينى ما يوعدون . رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ، زيدت « ما » ونون التوكيد إذ الأصل : إن ترى وذلك للبالغة فى توكيد المعنى ، فأنه عز وجل قادر على أن يريه صلى الله عليه وسلم ما يوعدون من العذاب ، ولكنه وعد ألا يعذبهم وهو فيهم » « وما كان الله ليُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ »^(١) ولذا أوتر التعبير « يان ، دون » إذا ، لعدم تحقق وقوع الشرط ، وجاء الدعاء « رب ، قبل الشرط وقبل الجزاء مبالغة فى الإبهال والتضرع ، وينبئ حذف حرف النداء « يا » إذ لم يقل يارب مثلا ، بشدة قرب الداعى صلى الله عليه وسلم من ربه جل وعلا ، واختير لفظ الرب لما فيه من معنى التريبة ، والإيدان بأنه سبحانه المالك الناظر فى مصالح العباد ، المتولى شؤونهم ، ووضع الظاهر « فى القوم الظالمين » موضع الضمير إذ الأصل : فهم ، وذلك تسجيلا عليهم وإشارة إلى استحقاقهم العذاب بما ارتكبوا من ظلم وبغى ، وفى أمره صلى الله عليه وسلم أن يدعو بهذا الدعاء ، على الرغم من أنه فى حرز عظيم من أن يجعل قرينا لهم ، إيدان بهول العذاب ، وكال فظاعته ، وكونه بحيث يجب أن يستعيز منه من لا يحيق به ، وفيه - كما قالوا - هضم لنفسه صلى الله عليه وسلم ، وإظهار كمال عبوديته ، وإنباء بأن العبودية مهما سمت وعلت ، فإنها تؤمر وتنهى ، إذ للنبوة على الرغم من سموها حد ، ينبغى أن تقف عنده ، فلا تتعداه بحال من الأحوال إلى مرتبة الألوهية الأمرة الناهية ، وفيه أيضا دلالة على أن النعمة والعذاب المستأصل قد يعم فيحقيق بالطالح والصالح ، كما فى قوله تعالى : « وَأَنْقُوا نَفْسَهُ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »^(٢) وروى عن الحسن رضى الله عنه أن الله جل جلاله ، أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم ، بأن له فى أمته نعمة ولم يطلعه على وقتها ، أهى فى حياته أم بعد مماته ، ولذا أمره بهذا الدعاء ... وفى قوله تعالى : « وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ، أكد الخبر يان واللام وتقديم الجار والمجرور ، وذلك دفعا لإنكار

المشركين ، حيث كانوا ينكرون العذاب، ويسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم
لذا أخبرهم به ، بل قالوا : معاندين مكابرين : «اللَّهُمَّ إِنَّكَ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ
مِنْ عِنْدِكَ فَطَارَ عَلَيْنَا حِجَابَةٌ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ افْتِنَا بِمَذَابِ أَبِيهِمْ » (٢)
لذا أكد الإخبار بقدرة الله عز وجل على تعذيبهم ، وأن يرى نبيه صلى الله
عليه وسلم هذا العذاب الذي ينزله بهم ، ولكنه يؤخره لحكمة ، و لكونه
صلى الله عليه وسلم فيهم ، وهم لا يعذبون عذاب استتصال وهو بين أظهرهم ، وفي
قوله : « نعدهم » استعارة عنادية تهكمية حيث استعير الوعد للوعيد على سبيل
السخرية والتهكم ، واشتق منه « نعد » بمعنى « نواعد » على سبيل الاستعارة
التبعية العنادية ... والأمر في قوله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن السيئة » حث
للنبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يليق بشأنه الكريم من حسن الأخلاق وبكال
الفضائل ، وهضم لنفسه كما وضحنا في قوله : « قل رب إنا نرى ، وأوثر
التعبير بصيغة التفضيل « أحسن » لكونه أبلغ من أن يقال : ادفع بالحسنة
السيئة ... وفي قوله تعالى : « نحن أعلم بما يصنعون » قدم المسند إليه « نحن »
على خبره الفعلي للدلالة على القصر ، قصر علم ما يصنعون على ضمير العظمة ،
قصر صفة على موصوف قصر حقيقيا ، وفيه شدة وعيد للمشركين ، وتسليية
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إلى الله عز وجل ...
وفي قوله تعالى : « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب
أن يحضرون » استعيرت « الهمزات » للوساوس والحث على المعاصي ، إذ
الهمز في الأصل النخس والدفع يبد أو غيرها فينبه وبين الوسوسة شبه ظاهر ،
وجمعت « الهمزات » للترات والدلالة على تنوع الوسواس وتعدد الشياطين ،
وفي الأمر بالتعوذ من الحضور بعد الأمر بالتعوذ من همزاتهم مبالغة في التحذير
من ملابتهم ، وحث على الالتجاء إلى الله تعالى والاستعاذة به لدفع مكائدهم ،
ودره وساوسهم ، وفي إعادة الفعل « أعوذ بك » وتكرار النداء « رب »

إظهار لسكّال العناية بالمأمور به ، وحث على الاعتناء ، وعرض نهاية الإبتهاال
فى الدعاء والتضرع ، وفى قوله : « أن يحضرون » حذف الجار والمجرور
للدلالة على وجوب الاستعاذة من حضورهم فى كل حال من الأحوال ، والمعنى :
وأعوذ بك رب أن يكونوا معى فى حال من الأحوال ، فإنهم إذا حضروا
الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة ، والإغراء على الشر ، والصرف
عن الخير ...

معانى الآيات الكريمة : بعد أن أبرزت الآيات السابقة عناد الكفرة ،
وإصرارهم على الضلال ، وتمسكهم بمقالة الأولين فى إنكار البعث والنشور ،
أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يفحهم بالحجة الدامغة التى تقصم
ظهر الباطل ، قل لهم يا محمد جواباً لهم عما قالوه فى إنكار البعث وزغهم أن
ما جئت به أساطير الأولين ، قل لهم : لمن الأرض ومن فيها من المخوقات ؟ من
مالسكها ؟ ومن المتصرف فيها بالإيجاد والإفناء ؟ إن كان عندكم علم فأخبرونى بذلك ..
سيقولون لله ، يقرون ويعترفون بأن ذلك له عز وجل ، فهو وحده الذى له
الأرض ومن فيها ومن عليها ، أليس فى ذلك العظة والعبرة ، لمن أراد أن
يتذكر ويتدبر ويعتبر ، فيقلع عن كفره وطغيانه ؟ بلى ولكن العناد والمكابرة ،
والإصرار على الكفر والضلال ... قل من رب السموات السبع ؟ : من خالق
العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له جلّت
قدرته ، الذين لا يحصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ومن رب العرش
العظيم ، الذى لا يقدر قدره أحد إلا الله عز وجل ؛ فى الحديث : « ما السموات
السبع والأرضون السبع وما بينهما وما فيهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة فى
أرض فلاة ، وإن الكرسى فى النسبة إلى العرش كمثلك الحلقة فى تلك
الفلاة » ... سيقولون : الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، هو
خالقها وخالقه ، فهما لله تعالى ، وإن تعجب فعجب صنعهم ، يقرون لله بذلك

ولا يخافون عقابه ولا يتقون عذابه ، فيقلعون عما هم فيه من باطل وضلال ...
 قل لهم يا محمد : من ييده خزائن كل شيء ؟ ومن المتصرف في هذه الأكوان
 بالخلق والإيجاد والتدبير ؟ وهو يغيب من استجاره ويحمي من التجأ إليه ،
 ولا يغيب أحد منه أحدا ؟ أخبروني بذلك إن كنتم من أهل العلم ، سيقولون :
 الملك كله والتدبير لله خالق كل شيء ، ومالك الملك ، فكيف يخدعون
 ويصرفون عن طاعته وتوحيده وهم يعلمون ويقرون بأنه وحده المالك
 المدبر ؟ ألا يرتدعون وينزجرون ؟ ... فالآيات الكريمة لإعلام وإخبار
 بربوبيته تعالى ووحدانيته وملكوته الذي لا يزول وقدرته التي لا تحول ، وهي
 تدل على جواز جدال الكفرة وإقامة الحججة عليهم ، وتنبه إلى أن من ابتدأ
 بالخلق والإيجاد والإبداع فهو المستحق للألوهية والعبادة (١) ...

ثم يبين سبحانه وتعالى أنه قد بالغ في الاحتجاج عليهم ، ودفعهم بالأدلة
 الصحيحة الواضحة القاطعة التي تدل على أن ما جاءهم هو الحق والصدق ، وأنهم
 كاذبون في وصفهم وأقوالهم واعتقادهم أنه تعالى قد اتخذ صاحبة وولدا ،
 ولا دليل لهم على ذلك ، وإنما هم متمسكون بما وجدوا عليه آباءهم
 « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آفَارِهِم مُّقْتَدُونَ » (٢) ، وينزه
 سبحانه وتعالى نفسه عن الولد والشريك ، إذ لو قدر تعدد الآلهة لا نفرده
 كل إله بما خلق ، فما كان ينتظم الكون : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ
 لَفَسَدَتَا » (٣) ولكن المشاهد أن للكون معظام « مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ
 مِن تَفَافُوتٍ » (٤) ... لو كان فيهما آلهة إلا الله لعلنا بعضهم على بعض ، كل
 منهم يطلب قهر الآخر ، هذا يريد تحريك جسم مثلا ، وذلك يريد سكونه ...

(١) انظر القرطبي ١٢/١٤٥ .

(٢) سورة الزخرف آية ٢٣ . (٣) سورة الأنبياء آية ٢٢ .

(٤) سورة الملك آية ٣ .

فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، ويمتنع أن يجتمع مرادهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ، فيكون التعدد محالا ، تعالى الله عما يقولون ، وتنزه عما يصفون ، سبحانه عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون . . . ثم يخبر المولى جل جلاله ، أنه قادر على أن يهلك أولئك الكفرة ، وأن يرى نبيه صلى الله عليه وسلم ماتوعدهم به وأنذرهم إياه ، فتلك سنة الله في إهلاك الظالمين وتعذيبهم ، ولكنه تبارك وتعالى تفضلا منه وإنعاما ، وعد ألا يعذبهم ويستأصلهم ورسوله الأمين فيهم « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » (١) ، ويأمره عز وجل أن يدعوربه إن كانت إرادته تعالى أن يريه ما يوعدون من العذاب والهلاك ألا يجعله فيهم « رب إنا نرى ما يوعدون . رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ، ويرشده جل وعلا إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسئ إليه ليستجاب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة » ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٢) ويأمره سبحانه وتمسالي أن يستمهذ بالله من همزات الشياطين ونزوغهم ووساوسهم ، ومن أن يحضروه في أمر من الأمور « وَإِنَّمَا يَنْزَخُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (٣) . « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ » (٤) وذلك لأن الشياطين لاتنفع معهم الحيل ، ولا ينقادون بالمعروف ، وفي الصحيح : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه ، ... » وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن

(٢) سورة فصلت آية ٣٤ .

(١) سورة الأنفال آية ٣٢ .

(٤) سورة الناس آية ١-٦ .

(٣) سورة فصلت آية ٣٦ .

يحضرون ، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور كلها لطرد الشيطان، عند الأكل والنوم والجماع والذبح والخروج والدخول والعقد ، وغير ذلك من الأمور ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق وأعوذ بك أن يتخطبني الشيطان عند الموت » ، وروى الإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه كلمات ، يقولهن عند النوم من الفزع « باسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » ...

* * *

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَهَنَ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَتَلَفَعُ وُجُوهُهُمْ لِلْفَارِ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ . أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنْفَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ فِيهَا تُكذَّبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُسْكَلُوهُنَّ . إِنَّهُ كَانَ قَرِيقًا مِنْ هِيَادَىٰ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . لَأَنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰزُونَ . » .

اللغة والإعراب : « حتى ، ابتدائية دخلت على الجملة الشرطية ، وهي غاية لما قبلها ، والمعنى : وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين فلا أكون كالسكفار الذين تهمزهم الشياطين وتحضرهم حتى إذا جاء أحدهم الموت ، وقيل إنها متعلقة

(٩ — من هدى القرآن)

بقوله « يصفون ، الثاني ، والمعنى : لا يزالون على سوء المقالة والظعن في الرسالة حتى إذا جاء ، ويكون قوله تعالى : « قل رب أعوذ بك .. » اعتراضاً مؤكداً للإغضاء المدلول عليه بقوله عز وجل : « ادفع بالتي هي أحسن ، أي : ادفع مستعينا بالله تعالى على الشيطان أن يستنزلك عن الحلم ، ويغريك على الانتصار منهم ، وقيل إنها مردودة على قوله تعالى : « يصفون ، الأول أو على قوله : « يشركون ، » وهذا ليس بقول ، وقيل إنها مردودة على قوله تعالى : « ولأنهم لكاذبون ، » ويكون قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ، إلى هنا كالاقتراض تحقيقاً لكذبهم ، وتأكيذاً لاستحقاقهم العذاب ، ويرى البعض أن « حتى ، هنا ابتدائية فحسب ، وليست غاية لما قبلها ، وهذا ليس برأى أيضاً ، لأنها إذا كانت ابتدائية لا تفارقها الغاية ... والضمير في « أحدهم » راجع إلى الكفار ، والمراد بمجيء الموت ظهور أماراته ، ومجيء علاماته ، أي : إذا ظهر لأحدهم أمارات الموت وبدت له أحوال الآخرة قال تحسرا وندما على ما قرط في جنب الله تعالى « رب ارجعون » أي ردوني إلى الدنيا ، وخطاب الله تعالى بلفظ الجمع « ارجعون ، للتعظيم والإجلال ، كما في قول القائل :-

ألا فارحموني يا إله محمد فإن لم أكن أهلاً فانت له أهل
وقول الآخر:

وإن شئت حرمتُ النساءَ سواكم

وإن شئت لم أطعمُ نَفَاخًا ولا بَرْدًا^(١)

فالتعظيم كما يكون في ضمير المتكلم يكون في ضمير المخاطب وضمير الغائب والاسم الظاهر ، ولا وجه لإنكار ذلك ، وقيل الواو لكون الخطاب للملائكة والكلام على تقدير مضاف أي : ياملائكة ربي ارجعوني ، وجوز أن يكون

(١) النفاخ : الماء البارد المذب الصافي الذي يكاد ينقح الفؤاد ببرده : أي يستخرجه ، والبرد هنا المراد به : الريق أو النوم .

« رب » استغاثة به تعالى شأنه و « ارجعوني » خطاب للملائكة، وكانهم لما استغاثوا بالله تعالى قال قائلهم : « رب » ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : « ارجعون »، وقيل جمع الضمير ليدل على معنى تكرار الفعل أى : ارجعني ارجعني ارجعني ، ومثله في التثنية قوله تعالى : « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ » (١) قيل معناه : ألق ألق ، وقول امرئ القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أى قف قف ، وهذا ينبيء بما يصيب الكفرة ويحل بهم عند مواجهة الموت من دهش وحيرة وتخبُّط ... « لعلى أعمل صالحا فيما تركت » لعل : للترجى فهو يتمنى الرجوع ليحقق الإيمان الذى لم يحققه طيلة حياته ، ويجوز ان تكون « لعل » للتعليل أى : ارجعوني لأعمل ، و « صالحا » صفة لموصوف محذوف والتقدير : لعلى إن رجعت إلى الدنيا أعمل عملا صالحا ، أى : من الإيمان وما يتبعه من أعمال الخير ، و « ما » موصول بمعنى الذى حذف عائدته ، والمعنى : فى الذى تركته من العمل أو من الإيمان ، فقد ترك ذلك طوال حياته حتى جاءه الموت ، أو فيما تركته من المال والدنيا وعلى هذا يكون الترك بمعنى المفارقة ، جعل مفارقة المال والدنيا تركا لهما .. « كلا إنها كلمة هو قائلها » كلا : كلمة زجر وردع لهم ، لطلبهم الرجوع ، واستبعاد له ، والضمير فى «إنها» يرجع إلى قوله : « رب ارجعون لعلى أعمل ... » أى : إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة ، فلا يخليها ، ولا يسكت عنها ، لاستيلاء الحسرة ، وتسلسل الندم عليه ، فتقديم المسند إليه لتأكيد القول وتقويته ، أو قائلها وحده ، فلا يجاب إليها ولا تسمع منه ، ولا يعتد بقوله ، وكأن المعتد به شريك له فى القول ، فالتقديم للاختصاص ، وهذا كثير فى كلامهم ، تقول لمن كليك بما لا طائل تحته ، ولا جدوى فيه : تكلم واستمع لنفسك واشتغل أنت وحدك

بهذا القول، تريد أنه مما لا يسمع منه ولا يستحق الجواب، والكلمة بمعنى الكلام كما في قولهم: كلمة الإخلاص، وألقى الخطيب كلمة، وإطلاق الكلمة على الكلام مجاز عند النحاة، وعند اللغويين قيل حقيقة وقيل مجاز مشهور... ويجوز أن يكون معنى «لأنها كلمة هو قائلها»: أنه مجرد قول يقال، وأنه لو أُجيب القائل إلى ذلك الذي طلبه، ورد إلى الدنيا، لما حصل منه الوفاء، كما في قوله تعالى: «وَلَوْ رُدُّوْا أَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ»^(١)، وقيل الضمير، المسند إليه «هو»، يرجع إلى الله جل جلاله، أي لا خلف في إخباره، وقد أخبرنا بأنه لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها^(٢)... «ومن ورائهم» الورا قيل بمعنى: بعد، أي: ظرف زمان، والمعنى: ومن بعد موتهم، ومثله قوله تعالى: «مِنْ وَّرَائِهِ جَهَنَّمُ وَبُسْتَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ»^(٣)، وقوله عز وجل: «وَمِنْ وَّرَائِهِ هَذَا بَطْنٌ مِّنْ مَّاءٍ عَذْبٍ غَلِيظٍ»^(٤) ومنه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للبرء مذهب

أي: وليس بعد الله، وقيل بمعنى أمام أي: ومن أمامهم برزخ، فهو إما من أسماء الأضداد؛ لأن أحدهما ينقلب إلى الآخر، ومنه قول الشاعر:

ومن ورائك يوم أنت بالغه لا حاضر معجز عنه ولا بادی
وقول الآخر:

أترجو بنو مروان سمعى وطاعنى وقومى تميم والغلاة ورائيا

وقوله تعالى: «وَكَانَ وَّرَاءَهُم مَّلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيهَةٍ غَضَبًا»^(٥) أي: وكان أمامهم، أو ليس من الأضداد، ولكنه من توارى، أي: استتر، فصار البرزخ والعذاب وجهن من ورائهم؛ لأنها لا ترى، وقيل هو كما يقال: هذا الأمر

(٢) انظر فتح القدير - ٣ ص ٤٩٨

(٤) سورة إبراهيم آية ١٧

(١) سورة الأنعام آية ٢٨

(٣) سورة إبراهيم آية ١٦

(٥) سورة الكهف آية ٧٩

من ورائك أى : سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان أى : فى طلبه ، والضمير المضاف إليه يرجع إلى أحد فى قوله : « حتى إذا جاء أحدهم .. » وجمع باعتبار المعنى لأنه فى حكم الكل ، أى : حتى إذا جاء كل واحد منهم ، كما أفرد فيما تقدم باعتبار اللفظ ... « برزخ ، البرزخ هو الحاجز بين الشيئين ، وقد اختلف فى المراد فقيل : إن المراد ومن ورائهم حاجز من القبور ، بين الموت والبعث باق إلى يوم يبعثون ، وقيل حاجز بينهم وبين الجزاء التام ، باق إلى يوم القيامة ، فإذا جاء ذلك اليوم جوزوا على أمم وجه ، وقيل هو الأجل ما بين النفختين وقيل حاجز بينهم وبين الرجعة إلى يوم يبعثون من قبورهم ، وهو يوم القيامة ، وهذا تعليق لرجعتهم إلى الدنيا بالحال ، كتعليق دخولهم الجنة بقوله تعالى : « حَقَّ يَلْحَقُ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخَيْاطِ » (١) ... « فإذا نفخ فى الصور ، الصور هو القرن الذى ينفخ فيه ، والمراد بالنفخ : إما النفخة الأولى التى تصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وإما النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور ، وهذا أولى ، وقيل : الصور جمع صورة لا القرن ، والمعنى : فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها ، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس والحسن وابن عياض « فى الصور » بضم الصاد وفتح الواو ، وقراءة ابن رزین : « فى الصور » بكسر الصاد وفتح الواو ، فإن المذكور فى هاتين القراءتين جمع صورة ، لا بمعنى القرن قطعاً ، والأصل توافق معانى القراءات ، ولا تنافى بين النفخ فى الصور بمعنى القرن ، الذى جاء فى الخبر ، ودلت عليه آيات أخر ، وبين النفخ فى الصور جمع صورة لاختلاف المقامات والسياقات التى ورد فيها الحديث عن النفخ ... « فلا أنساب بينهم يومئذ ، التنوين فى « يومئذ » عوض عن جملة محذوفة ، أى : يوم إذ نفخ فى الصور ، والمراد بنفى الأنساب : نفي نفعها ، أو النفاخر بها ، أو الالتفات إليها ، أى : لا يتفاخرون بالأنساب فى ذلك اليوم ولا يذكرونها ، لما هم فيه من الحيرة والدهشة ، أو لا تنفعهم

الأنساب شيئاً في ذلك اليوم، فهي منزلة منزلة العدم لعظم الهول واشتغال كل امرئ
 بنفسه « يَوْمَ يَفِرُّ الْكَافِرُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ .
 لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »^(١) فالمرء لا يلتفت في ذلك اليوم
 إلى النسب، ولا يخطر بباله، لذهوله من عظم الهول، وهذا الحكم قيل إنه
 خاص بالكفرة لما يقتضيه عود الضمير في قوله « بينهم » عليهم، وقيل إنه عام
 لقوله عقب هذه الآية : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » ، وقيل
 لا ينفع نسب يومئذ إلا نسبه صلى الله عليه وسلم بشرط الإيمان ، فالكافر
 والعباد بالله لا نفع له بذلك أصلاً ، والفاء في قوله « فلا أنساب » واقعة في جواب
 إذا ، ولا نافية للجنس تعمل عمل إن ، وأنساب اسمها مبنى على الفتح ، وبينهم
 خبرها ... « ولا يتساءلون ، أى لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله وعن هو ونحو
 ذلك ، لانشغال كل منهم بأمر نفسه « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً . يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ
 الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْقَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبِذْبِهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ .
 وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ »^(٢) وذلك
 عقب النسخة الثانية من غير فصل ، فهو مقيد بيومئذ وإن لم يذكر بعده اكتفاء
 بما تقدم ... ونقرأ في آى الذكر الحكيم لإثبات تساؤل بين المؤمنين
 يوم القيامة « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »^(٣) ، وبين الكفرة
 « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »^(٤) ، كما نقرأ نساؤهم في ذلك
 اليوم « قَالُوا : يَا وَيْلَانَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ
 الْمُرْسَلُونَ »^(٥) ، فما وجه الجمع بين إثمات النساء في تلك الآيات وبين نفيه
 في هذه الآية ؟ :

- (١) سورة عبس آيات ٣٤ - ٣٧ . (٢) سورة المارج آيات ١٠ - ١٤ .
 (٣) سورة الصافات آية ٥٠ . (٤) سورة الصافات آية ٢٧ .
 (٥) سورة يس آية ٥٢ .

يمكن وجه الجمع بين نفي التساؤل وإثباته فيما يلي :

١ — يجوز أن يقال إن قولهم « من بعثنا من مرقدنا ؟ » كان قبل تحقق أمر تلك النفخة الثانية لديهم ، وأن الحكمين المذكورين - نفي الأنساب ونفي التساؤل - كانا بعد تحققها ومعرفة أنها لماذا كانت ، ويحتمل أن يكون الحكمان في مبدأ الأمر قبل القول المذكور ، كأنهم حين يسمعون الصيحة يذهلون عن كل شيء ، الأنساب وغيرها ، كالنائم إذا صبح به صيحة مفزعة فهب من منامه فرعا ذاهلا عن عنده مثلا ، فإذا سكن روعهم في الجملة قال قائلهم : من بعثنا من مرقدنا ؟ ..

٢ — أن يكون تساؤل الكفرة المنفي هنا عقب النفخة الثانية ، وأما تساؤلهم المثبت فهو عند جهنم ومعابنة العذاب ، وهو بعد النفخة الثانية بكثير ، وكذا تساؤل المؤمنين المثبت فإنه في الجنة كما يرشد سياق الآيات الكريمة : « وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأُنْهَىٰ بِنُحُورٍ . فَاقْبَلْ بِمَعْصُمٍ عَلَىٰ بَعْضِ يَتَسَاءَلُونَ ، ^(١) فال مواطن مختلفة ، والإثبات باعتبار بعضها والنفي باعتبار بعض آخر ..

٣ -- قد يقال إن التساؤل المنفي هنا تساؤل التعارف ونحوه ، مما يترتب عليه دفع مضرة ، أو جلب منفعة ، والتساؤل المثبت لأهل النار تساؤل وراء ذلك ، وقد بينه تبارك وتعالى بقوله عز قائله : « قَالُوا إِنَّا كُنَّا نَسْتَنصَلُ النَّبِيَّ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ يَخْتِصِرُ إِلَيْنَا قَوْلَهُ فَتَنَّا بِهِ الْمُنَافِقِينَ ، كَانُوا يَكْفُرُونَ ، فَأَقْبَلَّ اللَّهُ إِلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ تَتَابَعُوا ، فَالْمُؤْمِنُونَ كَانُوا إِخْوَةً رُفِعَ بَيْنَهُمُ الْمُنْتَهَىٰ ، فَأَخْلَسَ فِي هَٰذَا آيَاتِهِ لِقَوْمٍ يُعْلَمُونَ » ^(٢) ، كما أن التساؤل المثبت لأهل الجنة تساؤل استئناس ، وهو واضح في قوله تعالى : « قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ » ^(٣) .

٤ — قيل المنفي التساؤل بالأنساب ، فكأنه قيل : لا أنساب بينهم ولا

(١) سورة الصافات الآيات ٤٨ — ٥٠ .

(٢) سورة الصافات آية ٢٨ .

(٣) سورة الصافات آية ٥١ .

يسأل بعضهم بعضها ؛ لأنها لا تنفع ، والتساؤل المثبت ليس تساؤلاً بالأنساب كما هو واضح ..

٥ - - روى جماعة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن وجه الجمع بين نفي التساؤل هنا وإثباته هناك فقال : إن نفي التساؤل في النفخة الأولى حين لا يبقى على وجه الأرض شيء وإثباته في النفخة الثانية ، وعلى هذه الرواية فالمراد عنده بقوله تعالى « فإذا نفخ في الصور ، النفخة الأولى ، وهى إحدى روايتين عنه ، والرواية الثانية حمله على النفخة الثانية ، وعندئذ يختار فى وجه الجمع أحد الأوجه المذكورة قبل . . . « فمن ثقلت موازينه » الموازين جمع موزون ، وهى الموزونات من الأعمال أى : الصالحات التى لها وزن وقد رعد عند الله تعالى ، أو جمع ميزان ، والمعنى عليه : « فمن ثقلت موازينه بالحسنات ، ووجه جمعه - مع أن المشهور الصحيح أن الميزان مطلقاً واحداً - باعتبار تعدد الأوزان أو الموزونات ، وكذا إذا قلنا بأن ميزان كل شخص واحد وفى الكلام مضاف مقدر أى : كفة موازينه ، والضمير المضاف إليه فى « موازينه » يرجع إلى « من » وقد أفرد مراعاة للفظها ، أما اسم الإشارة والضميران فى قوله « فأولئك هم المفلحون » فقد روعى فيها معنى « من » ، وجملة « فأولئك هم المفلحون » خبر من ، والرابط الفاء والضمير ... « ومن خفت موازينه ، اختلف العلماء فى أعمال الكفرة أتوزن تلك الأعمال أم تحبط ؟ فالله عز وجل يقول : « أولئك الذين كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَإِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا » ^(١) فذهب البعض إلى أن الوزن ليس مختصاً بالمسلمين ، بل الكفار أيضاً توزن أعمالهم التى لا توقف لها على الإسلام ، وادعى القرطبي أن الصحيح أنها يخفف بها عذابهم وإن لم تكن راجحة ، كما ورد فى حق أنى طالب ، أما قوله : « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ، فعناه لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم ، كما يقال : ما لفلان عندنا

وزن أى : قدر لحسته ، ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لحفته ، وسرعة طيشه ، وقلة تثبته ، والمعنى على هذا أنهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة ... وذهب الكثير إلى أن الوزن مختص بالمسلمين ، وأما الكفار فتحبط أعمالهم كيف كانت ، والمعنى على هذا : لا يقيم لهم ميزان توزن به أعمالهم ؛ لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ، وهؤلاء لا حسنات لهم ... وبناء على ذلك فالمراد بالموازين فى قوله : « ومن خفت موازينه ، إما موازين أعماله الحسنة التى يخفف بها عذابه ، أو موازين أعماله التى لا وزن لها ولا اعتداد بها وهى أعماله السيئة ... » فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، أى : ضيعوها بتضييع زمان استكhalها ، وتركوا ما ينفعها وأبطوا استعدادها لنيل كمالها ، والجملة خبر من ، وقد جاء اسم الإشارة « أولئك » ، للجمع ، وكذا جمع الضميران : « خسروا أنفسهم » مراعاة لمعنى الموصول « من » ، وأفرد فى الصلة « موازينه » ، مراعاة للفظه كما فى الآية السابقة ... « فى جهنم خالدون » خبر ثان لأولئك ، والخبر الأول اسم الموصول « الذين » ، وجوز أن يكون « فى جهنم خالدون » خبرا لمبتدأ محذوف أى هم خالدون فى جهنم ، والجملة إما استئنافية جىء بها لبيان خسرتهم أنفسهم ، ولما خبر ثان أيضا لأولئك ، ويجوز أن يكون الذين نعتا لاسم الإشارة ، و« خالدون » هو الخبر ، كما يجوز أن يكون « خالدون » مع معموله « فى جهنم » بدلا من الصلة : « خسروا أنفسهم » ، وجعله كذلك نظرا لأنه بمعنى يخلدون فى جهنم ، وبذلك يصلح لأن يكون صلة كما يقتضيه الإبدال من جملة الصلة ... « تلفح وجوههم النار » جملة حالية أو مستأنفة أو خبر آخر لأولئك ، واللفح مس لهب النار الشىء وهو أشد تأثيرا من التلفح ، والمراد : تحرق وجوههم النار ، يقال : لفتحته النار إذا أحرقتة ، ولفحته بالسيف إذا ضربته ، وخصت الوجوه بذلك ، لأنها أشرف الأعضاء ، فبيان حالها أزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار ، وهذا هو السر أيضا وراء تقديمها على الفاعل ... « وهم فيها كالحون » هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، والكالح : الذى تشمرت شفتاه وبدت أسنانه من أثر ذلك اللفح ، فإن النار تلفحهم

لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : « تشويه النار ، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرتة ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن السكوح بسور الوجه وتقطيبه ، ويقال : دهر كالح أى : شديد يكح الناس بشدته ، والفعل : كح وأكح وتكح ، يقال : كح يكح كلوحا وكلاحا بضم الفاء فى المصدرين ، وتكح تكاحا ، وأكحه الأمر يكححه فهو مكح ، أنشد ثعلب :

ولوى التكاح يشتكى سغبا وأنا ابن بدر قاتل السغب

وقال ليبد يصف السهام :

رَقِيَّاتٌ عَلَيْهَا فَاهِضٌ تُكَلِّحُ الْأَرْوَقَ مِنْهُمْ وَالْأَيْلُ^(١)

ويقال : سنة كلاح بفتح الفاء أى : مجدبة ، وتكح البرق أى تتابع ودام برقه .. (٢) وقرىء « وهم فيها كلاحون » بغير ألف جمع كح كحذر ، صيغة مبالغة على وزن « فعل » ... « ألم تكن آياتى تتلى عليكم » على إضمار القول ، أى يقال لهم تويخا وتقريبا وتعنيفا وتذكيرا لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب : ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا فكنتم بها تكذبون ؟ .. « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا » جملة مستأنفة جواب لسؤال مقدر ، أو جواب للسؤال المذكور والشقوة مصدر وهى ضد السعادة ، قال تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَنفى الفَارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشِهْقٌ ... وَأَمَّا الَّذِينَ سُدُّوا فَنفى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا . » (٣) والمراد بها : لذاتنا وشهواتنا وسوء أعمالنا ، فأطلق المسبب وأريد السبب ، وغلبت علينا أى : استولت علينا ومالكتنا وتمسكت منا ، ونسبة الغلب لى الشقوة باعتبار تشبيهها بمن يتحقق منه ذلك ، وقرىء : شقوتنا ،

(١) الأروق : طويل الأسنان . والأيل : قصيرها .

(٢) انظر لسان العرب مادة كح . (٣) سورة هود الآيتان ١٠٦ ، ١٠٨

بفتح الشين وشقاوتنا ، بفتح الشين وألف بعد القاف ، وشقاوتنا بكسر الشين ، وهى فى جميع ذلك مصدر « شقى » ومعناها : ضد السعادة كما ذكرت... وكنا قوما ضالين ، أى : عن الحق بسبب تلك الشقاوة ، مكذبين بما يتلى من الآيات ، فما تنسب يارب إلى حيف فى تعذيبنا... ولا يجوز أن يكون هذا اعتذارا بما عليه الله تعالى فيهم وكتبه عليهم من الكفر ، أى غلب علينا ما علمته وكتبته علينا ، وكنا بسبب ذلك قوما ضالين ، فما وقع منا من التكذيب بآياتك لاقدرة لنا على دفعه ، لايجوز هذا ولا يصلح الاعتذار ، لأنه يستلزم انقلاب العلم جهلا ، وهو باطل ومحال ، فإنه سبحانه وتعالى ما كتب إلا ما علم ، وهو جن وعلا قد علم ما هم عليه فى نفس الأمر من سوء الاستعداد المؤدى إلى سوء الاختيار ، فالعلم تابع للعلوم ، ولذا فالآية اعتراف منهم بضلالهم ، ويؤيد دعوى الاعتراف قوله تعالى حكاية عنهم : « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، أى : ربنا أخرجنا من النار ، وارجعنا إلى الدنيا ، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه فيها من الكفر والمعاصى فإنا متجاوزون الحد فى الظلم ، وذلك لأن اجترأهم على هذا الطلب أوفق بكون ما قبله اعترافا بضلالهم ، فإنهم إنما قالوه تمهيدا للطلب المذكور ، إذ هو مظنة تسكين لهيب الغضب ، ثم إنهم قد طلبوا ما طلبوا من الرجوع إلى الدنيا ، لما شاهدوه من سوء حالهم فى ذلك اليوم ، فلعلمهم ظنوا تغير ما قد كانوا عليه من سوء العمل وسوء الاستعداد ، لو رجعوا إلى الدنيا ، وفى قولهم « عدنا » إنباء بأنهم حين الطلب على الإيمان والطاعة فيكون الموعود على تقدير الرجعة إلى الدنيا : الثبات عليهما لينتفعوا بهما بعد أن يوتوا ويحشروا... « قال اخسأوا فيها ولا تكلمون » : الخسء إبعاد بمكروه ، من خسأت الكلب إذا زجرته وطرده نفساً أى : انزجر ، والمراد : انزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت ، وتباعدوا تباعد سخط وذل ، واسكتوا سكوت هوان وابتعدوا فى جهنم بعد الكلب ، ولا تكلمون فى إخراجكم من النار ، ورجوعكم إلى الدنيا ، أو فى رفع العذاب عنكم ، وقيل المعنى : ولا تكلمون رأسا ، وهو آخر كلام يتكلمون به... « إنه كان فريق من عبادى يقولون ،

الضمير ضمير الشأن أى : إن الشأن كان فريق ، والجملة مستأنفة استئنفا تعليليا لما قبلها من الزجر عن الدعاء ، وقرئ « أن » بفتح الهمزة ، فتقدر لام التعليل ، أى : لأن الشأن كان فريق من عبادى فى الدنيا التى تريدون الرجوع إليها ، والفريق : الطائفة من الناس ، والمراد بهم : المؤمنون ، وقيل هم الصحابة ، وقيل هم أهل الصفة ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ... « يقولون ربنا آمننا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين » الجملة من القول ومقوله فى محل نصب خبر كان ، وكان واسمها وخبرها فى محل رفع خبر إن ، وجملة « وأنت خير الراحمين » فى محل نصب حال من الفاعل المستتر فى « اغفر وارحم » والذى يعود إلى « الرب ، جل جلاله ، وأصل الغفر : التغطية والستر ، يقال : غفر الله الذنب أى : ستره فمؤ الغفور والغفار ، صيغتا مبالغة ، ومعناها : السائر لذنوب عباده ، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، والرحمة الرقة والتعطف ، ومثلها الرحمة ، يقال : رحمته بكسر الحاء ، وترحمت عليه دعوت له بالرحمة ، واسترحمه : سأله الرحمة ، وتراحم القوم : رحم بعضهم بعضا ، وتطلق الرحمة على المغفرة ، وعلى الرزق ، وعلى الخصب ، والرحم : أسباب القرابة ، ومنبت الولد ، والرحمن من أسماء الله عز وجل ، وبنيت صيغته على « فعلان » لأن معناه الكثرة ، وذلك لأن رحمته وسعت كل شىء ، وقدم الرحمن على الرحيم فى البسمة ، لأن الرحمن مقصورة على الله عز وجل والرحيم قد يكون لغيره ، وجيء بالرحيم بعد استغراق الرحمن معنى الرحمة لتخصيص المؤمنين به فى قوله تعالى :

« وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » (١) . . . « فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخْرِيًا » سخريا : مصدر سخر ، زيدت عليه ياء النسب للمبالغة ، يقال سخر : سخرأ وسخريا كما قيل : الخصوصية فى الخصوص ؛ قرئ بضم السين وكسرهما والمعنى عليهما واحد وهو الهزؤ ، وقيل المكسور من الهزؤ والمضموم من السخرة والعبودية والاستخدام بغير أجره . وقيل إذا أريد السخرة والاستعباد ضمت السين

لاغير ، ولماذا أريد الاستهزاء جاز الضم والكسر ، والمعنى : فاتخذتموهم هزواً وتشاغلتم بهم ساخرين أو مسخرين مستعبدين ، و «اتخذ» : متعد إلى مفعولين ، المفعول الأول : الضمير العائد إلى المؤمنين ، والمفعول الثاني : سخرىا .. « حتى أنسوكم ذكري » بتشاكلهم بالاستهزاء بهم ، أى : اتخذتموهم سخرىا إلى هذه الغاية ، وهذا الحد ، وهو نسيان الذكر ، فإنهم نسوا ذكر الله تعالى ، لشدة اشتغالهم بالاستهزاء ، فحتى هنا غائية ود أنسى : : عدى بالهمزة إلى المفعول الثانى ، فنسى : ينصب مفعولاً واحداً ، يقال : نسيت الشيء ، فإذا دخلت عليه الهمزة عدته إلى المفعول الثانى ، يقال : أنسانى فلان كذا ، قال تعالى : « فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ »^(١) فنسى : نصب مفعولاً واحداً وهو الحوت ، وأنسى : نصب مفعولين ، الياء والهاء ، والمفعولان فى الآية الكريمة : كاف الخطاب ، العائد إلى الكفرة وذكري ... « وكنتم منهم تضحكون » وذلك غاية الاستهزاء ، والمعنى : حتى نسيتم ذكري باشتغالكم بالسخرية والضحك ، فعدى الفعل « نسى » بالهمزة ، ونسب ذلك إلى عباده المؤمنين لكونهم السبب ... « لئى جزيتهم اليوم بما صبروا » أى : بسبب صبرهم على ما آذيتموهم فى الدنيا ، فالجملة مستأنفة لتقرير ماسبق ، والباء فى « بما صبروا » للسببية وما مصدرية ، والفعل « جزى » متعد لمفعولين ، الأول : الضمير العائد إلى « فريق من عبادى » ، والثانى : جملة « أنهم هم الفائزون » ، فإن واسمها وخبرها فى تأويل مصدر ، وقع مفعولاً ثانياً للجزاء ، وهو يتعدى له بنفسه وبالباء ، والمعنى : لئى جزيتهم الفوز أو بفوزهم ، ويجوز اعتبار المفعول الثانى محذوفاً ، وجملة « أنهم هم الفائزون » فى موضع جر بلام تعليل مقدره ، أى : لئى جزيتهم اليوم أفضل جزاء ، لفوزهم بالتوحيد المؤدى إلى كل سعادة ، ولا يمنع من ذلك تعليل الجزاء بالصبر ؛ لأن الأسباب لكونها ليست عللاً تامة ، يجوز تعددها ، وقرىء « لأنهم » بكسر الهمزة على أن الجملة استئناف معلل للجزاء ، أو مبين لكيفيته ...

الأسرار والمزايا البلاغية: في قوله تبارك وتعالى: «حتى إذا جاء أحدهم الموت» عبر بإذا دون «إن» لتحقيق مجيء الموت، فهو آت لا محالة، وفي «جاء» استعارة تبعية، حيث استعير المجيء للظهور، واشتق منه جاء بمعنى ظهر، وفي قوله: «جاء الموت» مجاز بالحذف، إذ المراد مجيء أماراته، وظهور أحواله وعلاماته، والمعنى: حتى إذا ظهرت أمارات الموت لأحدهم، وبدأت له أحوال الآخرة.. ويجوز اعتبار «جاء» على حقيقته، ويكون التعبير مجازا عقليا، لأن الذي يأتي هو ملك الموت الذي وكل بهم، فإسناد المجيء إلى الموت مجاز عقلي علاقته السببية؛ إذ الموت هو سبب مجيء الملك الموكل بقبض الأرواح عند انتهاء الآجال.. وفي التعبير حذف لمتعلق «حتى» دل عليه ما قبله، والتقدير: وأعوذ بك رب أن يحضروني، فأكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين وتحضروهم، حتى إذا جاء أحدهم الموت، أو دل عليه قوله: «يصفون» الثاني، على أن حتى مرودة إليه، وقوله: «وقل رب...» اعتراض مؤكّد للإغضاء المدلول عاياه بقوله تعالى: «ادفع بالتي هي أحسن» والمعنى: لا يزالون على سوء المقالة والطعن في الرسالة حتى إذا جاء أحدهم الموت... وفي قوله تعالى: «قال رب ارجعون» حذف حرف النداء لضيق المقام، وجاء الخطاب بلفظ الجمع «ارجعون» تعظيما لله جل جلاله، وقيل الخطاب للملائكة على حذف مضاف والتقدير: يا ملائكة ربي ارجعوني، وهذا الحذف ينبيء بما هم فيه من ضيق وتأم، وكأن الكلمات لا تسعفهم لإتمام العبارة، وقيل إنهم استغاثوا بالله تعالى عند مجيء الموت فقال قائلهم: رب، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال: ارجعوني، وقيل جمع الضمير ليدل على تكرار الطلب، فكان أنه قال: رب ارجعني ارجعني ارجعني، وهذا ينبيء بما هم فيه عندئذ من الحيرة والتخبط... وفي قواه تعالى: «لعلي أعمل صالحا فيما تركت» حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، وحذف مفعول ترك، والتقدير: لعلي أعمل عملا صالحا فيما تركته من العمل والإيمان، أو فيما تركته من المال أو الدنيا، فعلى جعل المتروك العمل والإيمان يكون الترك بمعنى الإعراض والإهمال وعدم التحقيق، أي:

فيا أعرضت عنه وأهمته فلم ألتفت إليه ولم أحققه ، وعلى جملة المال أو الدنيا يكون الترك بمعنى المفارقة أى : فيما خلفته وفارقته من الدنيا أو المال ، وفى إطلاق الترك على المفارقة مجاز بالاستعارة ، حيث استعير الترك للمفارقة بجماع الابتعاد فى كل ، ثم اشتق من الترك : ترك بمعنى : فارق على سبيل الاستعارة التبعية فى الأفعال ... وفى قوله تعالى « كلا إنها كلمة هو قائلها ، مجاز مرسل فى كلمة » ، حيث أطلقت على الكلام المركب وهو قوله تعالى : « رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت » ، فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية ، إذ أطلقت الكلمة وأريد الكلام ، وتقديم المسند إليه فى قوله تعالى : « هو قائلها » ، إما للتوكيد أى : هو قائلها لا محالة فلا يخفيها ولا يسكت عنها ، وذلك لتسلط الندم واستيلاء الحسرة عليه ، وإما للاختصاص أى : هو قائلها وحده ، إذ لا يجاب إليها ولا تسمع منه ، وذلك بتنزيل الإجابة والاعتداد منزلة القول ، حتى كأن المعتد بها شريك لقائلها فى القول .. وفى قوله تعالى : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » ، نفيت الأنساب والمراد نفي نفعها أو الاقتحار بها أى : لا تنفع الأنساب يومئذ ، ولا تغنى شيئا ، ولا يفخر بها كما كان يفخر فى الدنيا ، وإنما الفخر هناك بالأعمال التى تنجى من الأهوال ، فحيث لا ينتفع بالأنساب يومئذ ، ولا يفخر بها ، نزلت منزلة العدم ، فكأنها لم تكن ، وهذا ينبئ بعظم الهول ، واشتداد الخطب ، واشتغال كل امرئ بنفسه ، بحيث يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، ولذا نفي التساؤل أيضا « ولا يتساءلون » ، فى ذلك اليوم ، فنفي التساؤل مقيد بما قيد به نفي الأنساب ، وهو « يومئذ » أى : يوم إذ نفخ فى الصور النفخة الثانية ، ولم يذكر هذا القيد بعد نفي التساؤل ، اكتفاء بذكره أولا عقب نفي الأنساب ... وفى قوله تعالى : « فأولئك هم المفلحون ... فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » ، عبر باسم الإشارة الموضوع للبعد تعظيما لمن ثقلت موازينهم ، وتحقيرا لمن خفت موازينهم ، وذلك بتنزيل البعد المعنوى فيهما منزلة البعد الحسى ، فبعد من ثقلت موازينهم بعد تعظيم وسمو منزلة ، وبعد من خفت موازينهم بعد طرد وإبعاد وتحقير ، ولا يخفى عليك

القصر في الموضعين ، قصر الفلاح على أولئك الذين ثقلت موازينهم ، وخسران
 الأنفس على أولئك الذين خفت موازينهم ، وقوله : « في جهنم خالدون ، إما أن
 يكون جملة مستأنفة فصلت عما قبلها لشبهه كمال الاتصال أى : الاستئناف البياني ،
 حيث تضمنت الجملة الأولى سؤالاً فخـواه : ما جزاء أولئك الذين خسروا
 أنفسهم فأجيب : هم في جهنم خالدون ، وإما أن تكون خبراً ثانياً لأولئك ،
 كما يجوز أن يكون خبراً مفرداً لاجملة ، فلا حذف عندئذ ، أو بدلاً من جملة
 الصلة - كما أوضحنا في أوجه إعرابه - وفى قوله تعالى : « تلفح وجوههم
 النار وهم فيها كالخون ، خصت الوجوه بالذكر ، وأوثر على غيرها من أعضاء
 الجسد ، ثم قدمت على الفاعل « النار » ، وذلك لأنها أشرف الأعضاء ، فيبان
 حالها أزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار ، ومن دقائق التعبير القرآنى الجميلة
 فى الآيتين ، دقة استخدام الأفعال والأسماء ، بحيث يتلاءم اللفظ مع المعنى
 تلوّماً تاماً ، فلما كان خسران الكفرة أنفسهم قد تحقق فى الدنيا ومضى زمانه
 عبر عنه بالفعل الماضى : « خسروا » ، ولما كان خلودهم فى جهنم باقياً ومستمرّاً
 إلا ما شاء ربك ، وكان الكلوح ملازماً لهم وثابتاً ، فقد عبر عنهما بالاسم الذى
 يفيد الثبات والدوام : « فى جهنم خالدون ... وهم فيها كالخون ، ولا يخفى عليك
 ما يفيد تقديم المسند إليه « هم » من تأكيد نسبة الكلالح إليهم ، ولما كان لفح
 النار لو جهنم وجلودهم متجدداً ومستمرّاً ، فقد عبر عنه بالفعل المضارع الذى
 يفيد الحدوث والتجدد الاستمرارى ، « تلفح وجوههم النار .. » وصدق الله العظيم :
**« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ فَإِرَاءَ كَلِمَاتٍ نَضَعَتْ جُلُودَهُمْ
 بِدَلْفَانِهِمْ جُلُودًا فَخَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً »** (١) ..
 وفى قوله تعالى « ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ، حذف القول
 وتقديره : يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً وتذكيراً لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب :
 ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا ؟ فالاستفهام للتقرير والتوبيخ والتعنيف ،

ولحذف القول مغزى بلاغى جليل وهو أن تظل الصورة التي ارتسمت في ذهن القارىء لهؤلاء الكفرة والنار تلمح وجوههم، أن تظل باقية في الأذهان أثناء قراءة هذا السؤال الموجه إليهم تبسكيتا وتوييخا، ولو قيل: تلمح وجوههم النار وهم فيها كالحون، يقال لهم: ألم تكن آياتى تنبئ عليك، لامتحت الصورة التي تصورها العقل لأولئك الكفرة، حيث ينتقل الذهن منها إلى القول المقدر، وعندئذ يلقى السؤال التبسكيتى وقد ولت تلك الصورة وتركها الذهن، وتأمل ما يمكن وراء هذه الفاء «فكنتم بها تكذبون»، إنها قنبى بمدى مكابرة هؤلاء وشدة إعراضهم ونفورهم، حيث عطلوا وسائل التفكير والإدراك، وكذبوا بمجرد تلاوة الآيات عليهم، دون أن ينظروا فيها، لأن الفاء للترتيب والتعقيب كما تعلم... وفي قوله تعالى: «قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين»، فصلت جملة: «قالوا ربنا»، عما قبلها لكمال الانقطاع بلا إيهام، حيث اختلفت الجملتان خبرا وإنشاء لفظا ومعنى، أو للاستئناف البياني، حيث وقعت جوابا لسؤال مقدر أثارته الجملة الأولى، وكان سائلا سأل: فإذا قالوا؟ وبهم أجابوا ذلك التعنيف، فأجيب: قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا، ثم وصلت جملة الجواب، هذه «غلبت علينا شقوتنا»، بما بعدها: «وكنا قوما ضالين»، للتوسط بين الكلمتين، لانفاقهما خبرا وإنشاء لفظا ومعنى، ولا يقال: إن الجملتين مقول القول، فلمهما محل من الإعراب، والفصل والوصل إنما ينظر إليه في الجمل التي لا محل لها من الإعراب، لا يقال هذا، لأننا نرى أن الجمل التي لها محل من الإعراب، لا تختلف عن التي لا محل لها، فإزاء كليهما تكن الدقائق والمزايا، التي يلتفت إليها في معرفة مواضع الفصل ومواضع الوصل (١) . . . ولا يخفى عليك ما وراء النداء: «ربنا»، وحذف حرف النداء من معاني التذلل والخضوع والانكسار، وشدة التقرب إليه تعالى، وفي «شقوتنا» مجاز مرسل علاقته المسببية، حيث أطلق المسبب «الشقوة»، وأريد السبب وهو المعاصى والهوى واللذات، وفي «غلبت علينا شقوتنا»، استعارة مكنية، حيث شبهت

(١) أرجع إلى الجزء الثانى من كتابنا: علم المعانى ص ١٧٧ .

الشقوة بمعنى المعاصي والهوى واللذات ، بقادر فانك لا يستطيعون مقاومته ، ثم حذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه ، وهو « غلبت » ، على سبيل الاستعارة المسكنية ... وفي قوله تعالى : « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، عبر يان دون « إذا » للدلالة على أن عودتهم إلى ما كانوا عليه من العصيان والمكابرة ، من الأمور المستبعدة المحالة ، فهم يخبرون بأنهم جادون مصرون - لو خرجوا من جهنم وردوا إلى الدنيا - على تغيير منهمم الذى نهجوه ، وتبديل مسلكهم الذى سلكوه ، والتعبير بالعود : « عدنا » يشير إلى أنهم حين الطلب على الإيمان فهم الطاعة ، ولن يعودوا إلى الكفر والعصيان لو رجعوا إلى الدنيا ، ووراء حذف الجار والمجرور فى قوله : « عدنا » ، مغزى دقيق وهو الإشعار بندمهم وشدة خجلهم ، إذ التقدير : فإن عدنا إلى الكفر والعصيان ، وكأنهم يأبون التلفظ بهذا المحذوف ، ويريدون طيه ومحوه ، والمراد بالأمر فى قوله : « أخرجنا » الدعاء والتضرع ، ولا يخفى عليك ما وراء النداء « ربنا » ، وحذف حرف النداء من الخضوع والتذلل ، وشدة التقرب إلى الله عز وجل ، وتأكيد الخبر : « فإنا ظالمون » ، يشعر بمدى انفعالهم ، وامتلاء أنفسهم به ، وقوة لإصرارهم على الإيمان والطاعة ، لو ردوا إلى الدنيا ... وفى قوله تعالى : « قال : اخسأوا فيها ولا تكلمون » ، وصل بين الجملتين للتوسط بين السكابين ، حيث انفقتا فى الإنشائية لفظا ومعنى ، وفصلت جملة « قال اخسأوا » ، عما قبلها للاستئناف البيانى ، إذ وقعت جوابا لسؤال انبعث مما قبلها تقديره : فاذا قال لهم ربهم ؟ فأجيب : قال اخسأوا فيها ولا تكلمون ، وفى « اخسأوا » ، استعارة مكنية حيث شبهوا بالكلاب ، التى تخسأ إبعادا وطرذا وهوانا ، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو « اخسأ » ، على سبيل الاستعارة المسكنية ، ولا يخفى عليك ما وراء الأمر والنهى : « اخسأوا » ، ولا تكلمون ، من الإهانة والإذلال ... وفى قوله تعالى : « إنه كان فريق من عبادى يقولون » : وضع الضمير فى « إنه » ، موضع الاسم الظاهر ، فهو ضمير الشأن ، والغاية من ذلك ترسيخ المعانى المذكورة وتثبيتها فى الأذهان ، ويرجع ذلك إلى الإيضاح بعد الإبهام ، الذى يمكن وراء

ضمير الشأن ، فالشيء إذا أهبهم تطلعت النفوس ، وتشوقت لمعرفة ، فعند ما يأتي الإيضاح بعدئذ يقع في النفس موقعه ، لأنه جاء والنفس عنه تبحث وإليه تتطلع ... وتجد التعبير حافلا بتكريم أولئك المؤمنين وتعظيمهم وإعلاء شأنهم ، فقد وقعت هذه الجملة تعليلا لما قبلها من زجر الكفرة عن الدعاء ، ونكر « فريق » ، وأضيف إلى الله تعالى « من عبادي » تعظيما وتكريما ، ثم قيل بعد ذلك : « لئلي جزيتهم اليوم بما صبروا إنهم هم الفائزون ، وفي هذا غاية السخط والإذلال والإهانة لأولئك الكفرة ، ودلالة على اختصاص أولئك العباد المسخور منهم في الدنيا اختصاصا بالغا بالنعيم والفلاح والفوز ، ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من المبالغة في تبكيت الكفرة وتحقيرهم ، حيث زاد في خصمهم وإهانتهم بإعزاز وتكريم أصدادهم « المؤمنين » ... وفي قوله تعالى : « ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين » المراد بالأمر في « اغفر لنا وارحمنا الدعاء والتضرع ، وحذف حرف النداء في « ربنا » يشعر بشدة قرب أولئك المؤمنين من ربهم وتغائبهم في الطاعة والإيمان ، وإيثار التعبير بكلمة « خير » دون « أرحم » ، مثلا في قوله تعالى : « وأنت خير الراحمين » ، ينبيء بأن الخيرية ثابتة لله جل جلاله ، حتى في رحمته وغفرانه ، فهو يرحم ويغفر لمن هو أهل للرحمة والمغفرة ، وكذا في ميدان التعذيب والمقاب ، تأمل قوله تعالى : « وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ لِّلْمَاكِرِينَ »^(١) وتدبر إيثار التعبير بكلمة « خير » دون « أقوى » ، مثلا ، فهو ينبيء بأن الخيرية ثابتة له تبارك وتعالى حتى في انتقامه من الماكرين ، إذ لا يفعل إلا ما هو عدل ، ولا ينزل إلا ما هو حق ، ولا يعاقب إلا من استوجب العقاب ، ولا يرحم إلا من هو أهل للرحمة ، ففعله كله خير ... وفي قوله تعالى : « فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرا وكنتم منهم تضحكون تذيء الفاء في « فاتخذتموهم » مدى عناد الكفرة ومكابرتهم ، حيث لم يلتفتوا لمثالة المؤمنين ، ولم ينظروا فيها ويتدبروا ، بل أعقبوها بالسخرية والضحك

والاستهزاء، وفي قوله: «سخر يا» زيدت ياء النسب للبالغة في المصدر، والدلالة على شدة استهزاء الكفرة بذلك الفريق المؤمن من عباد الله، وفي إسناد الإنساء إلى الضمير العائد إلى المؤمنين في قوله: «أنسوكم»، مجاز عقلي علاقته السببية؛ لأن أولئك المؤمنين لم ينسوهم الذكر، وإنما كانوا السبب فيه، ويشعر هذا المجاز بشدة اشتغالهم بالاستهزاء، فقد بلغ مبلغا أنساهم ذكر ربهم، وما ينبىء بذلك تقسيم الجار والمجرور في قوله: «وكنتم منهم تضحكون»، فهو يدل على القصر، قصر الضحك على كونه منهم دون غيرهم، فقد اتخذوهم أضحوكة، إذا أرادوا الضحك والتسلية، فبهم يتسلون، ومنهم يضحكون، وهذا غاية الاستهزاء والاستخفاف... وفي قوله تعالى: «إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون»، فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البياني، وهذا الاستئناف يؤذن بحسن حال المؤمنين وسمو مكانتهم، فقد انتفعوا بما أودوا في الدنيا، كما ينبىء بتوبيخ الكفرة وإهانتهم وتحقيرهم، وما يبرز مكانة المؤمنين ورفعة شأنهم، قصر الفوز عليهم في قوله: «أنهم هم الفائزون»، وهذا القصر طريقه توسط ضمير الفصل، أو تعريف المسند بأل الجنسية كما ترى..

معاني الآيات الكريمة: يخبر الله جل وعلا أن أولئك الكفرة مستمرين في كفرهم وضلالتهم، باقون في عنادهم ومكابرتهم، حتى يحضرهم الموت، وعندئذ يصرخون نادمين، ويسألون الرجعة إلى الدنيا، ليصلحوا ما أفسدوا ويعملوا صالحا، تلك حالهم عندما يفاجئهم الموت، وهي حالهم عند العرض على ربهم:

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِئْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ»^(١)، وعند مشاهدة العذاب:

«وَرَرَىٰ الظَّالِمِينَ أَنَّمَا رَأَوْا الْعَذَابَ بِقَوْلُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ»^(٢)

وَمِ فِي غَمْرَاتِ عَذَابِ الْجَعِيمِ : « وَهُمْ يَضْطَرُّونَ فِيهَا رَبِّهَا أُخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ولكن هيهات هيهات ، أنى يستجاب لهم ، وقد عمروا الزمن للتكافى للتذكير : « أَوْلَمْ نُقَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ » (١) ولذا فإن ما يقولونه ندما وتحسرا على ما فاتهم ، لن يلتفت إليه ، إنه مجرد كلام يقال ، وهم قائلوه لا محالة ، ولو شاء الله أن ينظر إليهم ، ويردهم إلى الدنيا ، لسلكوا مسلك الغواية التي سلكوها ، وابتعدوا عن منهج الحق ، وصدق الله العظيم : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا إِمَّا هُمْ وَإِمَّا هُم مِّنْهُمْ أَكَاذِبُونَ » (٢) ولذا زجرهم المولى جل وعلا ، وتوعدهم ، معلنا أن عذاب القبر أمانهم ، وسيستمر بهم إلى يوم يبعثون ، فإذا ما نفخ في الصور النفخة الثانية ، نفخة النشور ، وعادت الأرواح للأجساد ، وهب الناس للحساب ، عندئذ لاتنفع الأنساب ، ولا يسأل حميم حميما ، بل إن المرء ليفرح أن يكون له حق على والده أو ولده أو أخيه أو وزوجه ولو صغيرا ، حتى يأخذه منه ، يوم ينادى المنادى : أَلَا مَن كَانَ لَهُ مِظْلَمَةٌ فَمِجْيُ ، « يَوْمَ يَبْرُؤُ الْمَرْءُ مِنَ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَيْنِهِ إِكْلُ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » (٣) في هذا اليوم تنقطع الأنساب والأسباب والأسباب والأصهار ، إلا نسبه صلى الله عليه وسلم وسببه وصهره ، كما ورد في أحاديث كثيرة ، وذلك بشرط الإيمان ، فالنافع في ذلك اليوم هو الإيمان والعمل الصالح ، والمفلس الناجى هو الذى تثقل موازينه بالحسنات ، أما من خفت موازينه فهم الكفرة ، الذين ظلموا أنفسهم ، فباءوا بالخسران والمهلك ، هؤلاء يتخلدون في جهنم ، تغشى وجوههم النار ، تفتحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم ، ثم لانكشف عنهم : « لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهُمْ

(٢) سورة الأنعام آية ٣٨ .

(١) سورة فاطر آية ٢٧ .

(٣) سورة عبس الآيات ٢٤ - ٣٧ .

الْفَارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا تُنصَرُونَ . بَلْ نَأْتِيهِمْ بِنِقْمَةٍ فَتَنِيهِمْهُمْ
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ^(١) وهم في جهنم كالطون عابسون ،
قد شوهتهم النار ، فقتلصت شفاههم العليا حتى بلغت وسط رؤوسهم ،
واسترخت شفاههم السفلى حتى بلغت سررهم ، ويقال لهم توبينا وتقرينا :
ألم تكن آياتي تلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ لقد أرسلت إليكم الرسل
وبينت لكم الآيات : « لئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، ^(٢)
« وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ^(٣) . . ولا يجد الكفرة إلا الإفراق
بالذنب ، وتغلب المعاصي والشهوات عليهم ، وأنهم كانوا قوما ضالين ،
ويضرعون إلى الله عز وجل ، سائلين الخروج من جهنم ، والرجوع إلى الدنيا :
رَبِّمَّا أُمَّتْنَا أُمَّتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ائْتِنَّا ائْتِنَّا بِذُنُوبِنَا قَهْلَ إِلَى خُرُوجٍ
مِّنْ سَبِيلٍ ^(٤) » ويحبهم المولى تبارك وتعالى : « اخسأوا فيها ولا تكلمون »
أى امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا فلا جواب
لكم عندي ، لأنكم انشغلتم عن ذكرى بالكيد لعبادى المؤمنين ، والاستهزاء بهم ،
والسخرية منهم والضحك والتهكم : « إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ
آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ^(٥) » فاليوم أجازيهم
بما صبروا جنة وحريراً فقد فازوا فوزاً عظيماً ، أما أنتم أيها الكفرة ، فامكثوا
في جهنم خالدين : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِبِّكَ قَالِ إِنَّكُمْ
مَأْكُوثُونَ ^(٦) » فابقوا في الجحيم ، وذرقوا عذاب النار ، جزاء وفاقا ، ولينعم
المؤمنون بما أعد لهم في الجنة ، فقد صبروا على ما آذيتهم ، واليوم يجزون
أفضل الجزاء ، إنهم هم الفائزون ، ونعم أجر العاملين الصابرين ...

* * *

- | | |
|---------------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الأنبياء آية ٣٩ ، ٤٠ | (٢) سورة النساء آية ١٦٥ . |
| (٣) سورة الإسراء آية ١٥ . | (٤) سورة غافر آية ١١ . |
| (٥) سورة المطففين آية ٢٩ ، ٣٠ . | (٦) سورة الزخرف آية ٧٧ . |

« قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَمَّآلَى اللَّهُ لِلَّكَ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » ...

اللغة والإعراب : الضمير في قوله تعالى : « قال : كم لبثتم » يرجع إلى الله تعالى ، أو إلى الملك المأمور بذلك ، فالقاتل هو الله جل جلاله ، أو الملك المأمور بسؤالهم ، والسؤال تذكير لهم بما لبثوا وتقريع لهم وتوبيخ ، وذلك عند ما سألوا الرجوع إلى الدنيا بعد أن أخبروا باستحالة ذلك الرجوع ، وأنه غير كائن ، كما يفصح عنه قوله عز وجل : « اخسأوا فيها ولا تكلمون » ، وقرئ : « قل ، على أن الأمر للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمعنى : قل يا محمد للكفار ، أو يكون أمرا للملك بسؤالهم ، أو التقدير : قولوا كم لبثتم ، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد والمراد الجماعة ... « في الأرض ، المراد بالأرض : الأرض التي طلبوا الرجوع إليها أي : الحياة الدنيا ، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه في الحياة الدنيا وفي القبور ، وقيل هو سؤال عن مدة لبثهم في القبور خاصة ، لقوله : « في الأرض ، ولم يقل : على الأرض ، ورد هذا القول بمثل قوله عز وجل : « وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ »^(١) وقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ »^(٢) .. وانتصاب « عدد سنين » على التمييز ، لما في « كم » من الإبهام ، وعدد مضاف وستين مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، ومن العرب من يعربها إعراب جمع التوكسير ، فيخفضها وينونها « سنين » ، وقرئ « عددًا » ، بالتثنية ، وقيل في إعرابه إنه مصدر

أقيم مقام الاسم فهو نعت مقدم على منوعته ، وليشم بمعنى : عددتم ، وسنين منصوب على الظرفية ، والمعنى كم عددتم في الأرض سنين عدداً ، وتجويز أن تكون « لبثتم » بمعنى عددتم بعيداً ، ولذا فالأرجح على هذه القراءة أن تكون « سنين » بدلا من « عدداً » ، و « عدداً » : منصوب على التمييز .. « قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم » : استقصارا لمدة لبثهم بالنسبة إلى ما تحققوه من طول زمان خلودهم في النار ، أو لما هم فيه من شدة الهول والعذاب ، أو لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ، ويستقصر مامر عليه من أيام الدعة ، أو لأنهم كانوا في سرور وأيام السرور قصار ، أو لأن المنقضى في حكم مالم يكن ، والأول أرجح لمناسبته للسياق واقتضاها المقام وللتصريح بوصف يوم القيامة بالطول والامتداد بالنسبة لأيام الدنيا ، كما في قوله عز وجل : « وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ »^(١) ، وقوله تعالى : « سَأَلْنَا سَائِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَآرِجِ . تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »^(٢) فقد ورد أن المراد بذلك يوم القيامة ، يجعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة ، ويخففه على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة ، فهو إما أن يكون استطلاعة له لشدته على الكافر ، وإما لأنه على الحقيقة كذلك والله يخففه على المؤمن ... وقد صدقهم الله تعالى في تقاليم لسنى لبثهم في الدنيا ، وبختمهم على غفلتهم التي كانوا عليها... « فاسأل العادين ، أى : لا نعرف من عدد تلك السنين إلا أن نستقله ، ونحسبه يوماً أو بعض يوم لما دهمننا من العذاب ، ولطول تلك الأيام بالنسبة لأيام الدنيا فاسأل المتمكن من العدد الذى يقدر أن يلقي إليه فكره ، وقيل : فسأل الملائكة الذين يعدون أعمار للعباد ، ويحصون أعمالهم ، وقرىء « العادين » ، بتخفيف الدال أى : الظلمة ، فإنهم يقولون كما نقول ، صار الأتباع يسمون الرؤساء بالعادين ، لظلمهم إياهم بإضلالهم ، وقرىء « العاديين »

بشديد الياء جمع « عادى » نسبة إلى قوم عاد ، والمراد بهم : المعمرين ، لأن قوم عاد كانوا يعمرّون كثيرا ، أى : فاسأل القديماء المعمرين فإنهم أيضا يستقرون مدة لبثهم ، فكيف بمن دونهم ، وعن ابن عباس : أنسأهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين .. « قال إن لبثتم إلا قليلا ، قرئ » قال ، على الخبر « و « قل » على الأمر ، وقد تقدم توجيه القراءتين ، و « إن ، نافية بمعنى : ما ، و « قليلا ، صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : ما لبثتم فى الأرض إلا لبثا قليلا أو زمنا قليلا ... » لو أنكم كنتم تعلمون ، لو : شرطية وجوابها محذوف ثقة بدلالة السياق عليه ، أى : لو كنتم من أهل العلم ، أو لو كنتم تعلمون شيئا لعلمت يومئذ قصر أيام الدنيا وقلة لبثكم فى الأرض كما علمت اليوم ، واعلمت بموجب ذلك ، ولم يصدر منكم ما أوجب خلودكم فى النار ، وقولنا لكم « احسأوا فيها ولا تكلمون » ، وقيل المعنى : لو كنتم تعلمون قلة لبثكم فى الدنيا بالنسبة للآخرة ما اغتررتن بها وعصيتن ، وكان نفي العلم عنهم لعدم عملهم بموجبه ، ومن لم يعمل فهو والجاهل سواء ، وجوز البعض أن تكون « لو » للتمنى فلا تحتاج إلى جواب ... هذا وقال غير واحد من المفسرين : المراد سؤالهم عن مدة لبثهم فى القبور حيث إنهم كانوا يزعمون أنهم بعد الموت يصيرون ترابا ولا يقومون من قبورهم أبدا ، واستصوب بعضهم هذا لقوله تعالى : « فى الأرض ، ولم يقل : على الأرض ، وقد ناقشنا هذا الاستصواب كما استصوبه بعضهم ، لأن قوله تبارك وتعالى بعده « وأنكم إلينا لا ترجعون ، يقتضيه ، ولا أرى وجها لهذا الاستصواب ، لأن قوله عز وجل : « وأنكم إلينا لا ترجعون ، لا يمنع من كون السؤال عما لبثوا فى الأرض أحياء معتقدين أنهم لا يبعثون بعد موتهم ، ويرجعون إلى ربهم .. » أحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، الهمة للإنكار والتزييح والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام والمعنى : ألم تعلموا شيئا فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة ، فالاستفهام لإنكار أن يترتب هذا الحسبان على جهلهم ، وعدم علمهم بما لبثوا ، وما ينبغى أن يعملوا فى دنياهم ، حتى أنكروا البعث ، وانتصاب « عبثا ، إما على الحال من

ضمير العظمة أى : أما خلقناكم عابثين ، أو على أنه مفعول له أى : أخصبتم
أما خلقناكم للعبث ، أو صفة لمصدر مقدر أى : أما خلقناكم خلقا عبثا ،
والعبث فى اللغة : اللعب واللهو ، يقال عبث عبثا فهو عبث أى : لاعب
لاه ، والمراد به فى الآية ما خلا عن الفائدة مطلقا ، أو ما خلا من الفائدة المعتد
بها ، و (ما) فى قوله (أما خلقناكم) إما مصدرية أى : أخصبتم أن خلقنا لكم
حصل عبثا ، أو موصولة أى : أخصبتم أن الذى خلقناكم له حدث منا وتم
عبثا ، أو زائدة كافة لأن عن العمل ... (وأنكم إلينا لا ترجعون) الجملة من
أن وإسمها وخبرها معطوفة على (أما خلقناكم) والمعنى : أخصبتم أن خلقنا
لكم عبثا وإهمالا كما خلقت البهائم ، ولا ثواب ولا عقاب ، وأنكم إلينا
لا ترجعون بالبعث والنشور ، فنجازيكم بأعمالكم ، وجوز أن تكون معطوفة
على (عبثا) والمعنى : أخصبتم أن خلقناكم للعبث ولعدم الرجوع ، أو عابثين
ومقدرين أنكم إلينا لا ترجعون ، وقرئ « ترجعون » بالبناء البعوم ، وفى
الآية توييح لهم على تغافلهم ، وإشارة إلى أن الحكمة تقتضى تكليفهم وبعثهم
للجزاء ... « فتعالى الله » أى تنزه عن أن يخلق شيئا عبثا ، استعظام له جل جلاله ،
ولشئونه التى يصرف عليها عباده جل وعلا ، من البدء والإعادة والعقاب
والإنابة بموجب الحكمة البالغة ، أى : ارتفع سبحانه بذاته ، وتنزه عن مماثلة
المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وعن خلو أفعاله من الحكم والمصالح الحميدة
لأنه الحكيم ... « الملك الحق ، الملك : ملك الملوك له الملك ، وهو ملك
يوم الدين ، ومالك الملك ، ومليك الخلق أى : ربهم ومالكهم ،
قال تعالى : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . . . » ^(١) وقال عز قائلنا : « أَلِ اللّٰهُمَّ مَالِكِ
الْمَلِكِ مُؤْتِنِ الْمَلِكِ مَنْ نَشَاءُ وَتَنْزِعُ لِلْمَلِكِ مِمَّنْ نَشَاءُ » ^(٢) وقال جلا وعلا :
« مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ » ^(٣) ، وملك الله تعالى وماكوته : سلطانه وعظمه

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦

(١) سورة الفاتحة آية ٤

(٣) سورة الناس آية ٢ ، ٣

والحق أى : الحقيق بالمالكية على الإطلاق لإيجاد وإعدا ما ، بدءاً وإعادة ،
 إحياء وإماته ، عقاباً وإثابة ، وكل ماسواه مملوك له ، مقهور تحت ملكوته ،
 فهو الملك الحق ، ويطلق الحق على نقيض الباطل ، وعلى الواجب الثابت ، فهو
 الحق أى الثابت الذى لا يزول ولا يزول مملكه ، وهذا وإن كان أشهر إلا أن
 الأول أوفق بالمقام ... « لا إله إلا هو ، لا رب سواه ، ولا خالق غيره ، فإن
 كل ما عداه عبيد له سبحانه وتعالى .. » رب العرش الكريم ، العرش : جرم
 عظيم وراء عالم الأجسام والأجرام ، وهو أعظمها ، وقد جاء في وصف عظمه
 ما يبهر العقول ، ويلزم من كونه تعالى ربه كونه رب كل الأجسام والأجرام ،
 إذ كيف يكون ربا للعرش ، ولا يكون لها وربا لها هو دونه من المخلوقات ،
 ووصف العرش بالكريم لشرفه ، وكل ما شرف في بابها وصف بالسكرم ،
 كما في قوله تعالى : « وَزُورِعَ مَقَامٍ كَرِيمٍ »^(١) ، وقوله عز وجل : « وَقُلْ
 لَهُمْ قَوْلًا كَرِيمًا »^(٢) ، وقد شرف العرش بما أودع الله تعالى فيه من أسرار ،
 أو ازول الرحمة والخير منه ، أو باعتبار من استوى عليه ، كما يقال : بيت
 كريم ، إذا كان ساكنوه كراما ، وقرىء « الكريم » بالرفع على أنه صفة
 للرب ، أو صفة للعرش على القطع ، وهذا أرجح ، لأنه أوفق بقراءة الجمهور ..
 « ومن يدع مع الله إلها آخر ، من : شرطية ، ويدع : فعل الشرط مجزوم
 وعلامة جزمه حذف الواو ، ومعنى « يدع مع الله إلها آخر » يعبد آخر مع
 وجود الله تعالى لها وتحقق هذا الوجود ، أو يعبد آخر مع عبادة الله سبحانه
 وتعالى وإقراره بألوهيته ، فالها : حال لازمة من لفظ الجلالة وآخر : صفة
 لموصوف محذوف وقع مفعولا ليدعو والتقدير : ومن يدع شيئا آخر مع وجود
 الله لها ، ويتحقق هذا في الكافر إذا أفرد معبوده الباطل بالعبادة ، أو أشركه
 مع الله تعالى ، ويجوز إعراب لها مفعولا ليدعو ، وآخر صفة ذكرت للتصريح
 بألوهيته تعالى ، وللدلالة على الشريك فيها ، هذا هو المقصود ، وليس ذكرها

تأكيدها لما تدل عليه المعية، وإن جوز البعض ذلك... « لا برهان له به، صفة لمفعول يدعوا، وهي صفة لازمة جئء بها للتأكيدها كافي قوله تعالى « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ، ^(١) ، ومثله قوله تعالى : « سَنُنزِّلُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَهُمْ مِنْهُ نِزْلٌ بِهِ سُلْطَانًا » ^(٢) والبرهان : الحجة الواضحة والدليل الساطع، وليس المراد أن يكون في الآلة ما يجوز أن يقوم عليه برهان أو ينزل به سلطان، وإنما المراد نفي البرهان وإنزال السلطان، وإن لم يكن في نفس الأمر برهان ولا سلطان، لا منزل ولا غير منزل، وذلك كما بمن يدعى إلهام مع الله، فالصفة - كما قلت - صفة لازمة جئء بها للتأكيدهم والتهمك، وليست صفة مقيدة، تجوز أن يكون في الآلة ما يمكن أن يقوم عليه برهان، ويجوز أن يكون قوله « لا برهان له به » اعتراضاً بين الشرط والجزاء جئء به للتأكيدها كافي قوله : من أحسن إلى زيد، لا أحق منه بالإحسان فإله تعالى مثيبه، ومنهم من جوز أن يكون جواب الشرط قوله تعالى : « لا برهان له به، على حذف الفاء، كما في قول الشاعر :

• من يفعل الحسنات الله يشكرها •

ويكون قوله تعالى : « فإنما حسابه عند ربه » تفريعاً على الجملة وليس هو الجواب، والحساب كناية عن المجازاة، كأنه قيل : من يعبد إلهام مع الله تعالى فالله سبحانه مجاز له على قدر ما يستحق من عقاب وهو مبتدأ خبره « عند ربه » أي : حسابه كائن عند ربه . . « إنه لا يفلح الكافرون ، الضمير ضمير الشأن، أي : إن الشأن لا يفلح الكافرون، وقرئ « أنه » بفتح الهمزة على التعليل، أو على جعل الحاصل من السبب خبر « حسابه » أي : حسابه عدم الفلاح، ويكون الظرف « عند » المتعلق بمحذوف صفة للمبتدأ والمعنى : فإنما حسابه الكائن عند ربه أنه لا يفلح الكافرون، وقرئ « يفلح » بفتح الياء واللام مضارع فليح بمعنى أفلح... وقد روعى في عود الضمائر : (يدع . . حسابه . .

ربه) لفظ « من » ، وروعى فى جمع « الكافرون » معناها ، والأصل : فإنما حسابه عند ربه أنه لا يفلح هو ، أو فإنما حسابهم عند ربهم أنهم لا يفلحون ، فوضع الظاهر « الكافرون » موضع الضمير .. ولا يخفى ما فى الآيات الكريمة من تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أمره عز وجل بالالتجاء إلى مغفرته ورحمته ، فحتم السورة بتعليمه أن يدعو بالمغفرة والرحمة « وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » أمره سبحانه وتعالى بالاستغفار والاسترحام لتقتدى به أمته ، وقيل أمره بالاستغفار والاسترحام لأمته ، والظاهر أن طلب كل من المغفرة والرحمة على وجه العموم له عليه الصلاة والسلام ولتبعيه ، وفى تخصيص هذا الدعاء بالذكر ما يدل على أهمية ما فيه ، وينبئ بأن الله جل وعلا لا يغفر أن يشرك به ، كمال قال تعالى : « **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** » (١) ولذا ذكر عقب الآية السابقة ، وختمت به السورة الكريمة ، تعليماً للأمة طريق الشناء والدعاء ، وتنبيهاً إلى عظم الشرك وخطره ، وتحذيراً منه ، إذ المؤمن عندما يدعو بالمغفرة والرحمة عقب تهديد المشركين وتوعددهم بالعقاب الشديد ، وهو يعلم أن الشرك أكبر الكبائر ، وأن الله لا يغفره أبداً ، فهذا يعنى أنه ينبغى أن يظل بمعزل ومنأى عن كل أنواع الشرك ... اللهم جنبنا الشرك وأنواعه ، واغفر لنا يارب وارحمنا برحمتك التى وسعت كل شيء وأنت خير الراحمين ...

الأسرار والمزايا البلاغية : الاستفهام فى قوله تعالى : « قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ » أريد به التقرير والتذكير بما لبثوا ، عندما سألوا الرجوع إلى الدنيا ، وذلك على سبيل التبسكيت والتوبيخ ، وقد استقصر الكفرة مدة لبثهم فى الدنيا فأجابوا : « لبثنا يوماً أو بعض يوم » ، وهذا الجواب ينبئ بقصر أيام

الدنيا بالنسبة للآخرة، ويشير أيضا إلى ما هم فيه من العذاب الشديد الذي أقدمهم التفكير، ولذا قالوا: « فاسأل العادين، أى: سل من يقدر أن يلقي إليه فكره ويستطيع أن يستجمع ذاكرته، فنحن قد ذهب العذاب بتفكيرنا وأفقدنا القدرة على الإدراك والعد، وقد صدقهم الله عز وجل في تقالهم لسنى لبثهم فى الدنيا، ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها، « إن لبثتم إلا قليلا، حيث قصر لبثهم على القلة قصرًا حقيقيا، وعلى الرغم من قلة لبثهم فإنهم لم يحسنوا استغلال حياتهم، وغفلوا عن الحق، وأعرضوا عن الإيمان والهدى، ولما ذاقوا العذاب تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليغيروا منها جهنم، ويستدرکوا ما فاتهم، ولات حين رجوع... وفى قوله تعالى: « لو أنكم كنتم تعلمون، حذف مدخول « لو »، لأنها لا تدخل إلا على الأفعال، والأصل: لو كنتم كنتم تعلمون، حذف فعل الشرط « كان » ثم دخلت « أن » على الضمير فصار الكلام: لو أنكم كنتم تعلمون، وتأكد بهذا الحذف امتناع كونهم من أهل العلم، لأنه أبرز الكلام فى صورة ما قدم فيه المسند إليه على خبره الفعلى، وهذا التقديم يفيد التأكيد، فضلا عن وجود أن، والمعنى: لو ثبت وتأكد كونكم من أهل العلم، أو كونكم تعلمون شيئا، لعلمت يومئذ قصر أيام الدنيا، كما علمت اليوم، ولعلمت بوجوب ذلك العلم، وما ندمتم الآن على ما فاتكم فى الدنيا، وتأكيدي نفي العلم بذلك عنهم لعدم عملهم بموجبه، ومن لم يعمل بموجبه فهو والجاهل سواء، وهذا ينبي بمدى غفلتهم وإعراضهم عن قبول الحق والهداية، ولا يخفى عليك حذف كل من مفعول « تعلمون »، وجواب الشرط... والاستفهام فى قوله تعالى: « أحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون، للإنكار، إنكار أن يترتب هذا الحسبان على جهلهم أى: ألم تعلموا شيئا فحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكرتم البعث، فالإنكار للأمرين معا، لعدم العلم وقد جاءهم الرسول، ولذلك الحسبان، أو بمعنى أدق، لترتب الحسبان على عدم العلم الذى يرجع إلى عنادهم وغفلتهم عن الحق، وعلى اعتبار أن « ما » كافة لأن عن العمل، تكون « أنما » دالة على

القصر، قصر خلقهم على العرش قصرا حقيقيا(١) . . . والفاء في قوله : « فتعالى الله الملك الحق، تشعر بضرورة أن يبادر المؤمن بتنزيه الله عز وجل وتقديسه عقب سماعه بمثل هذه الآية الكريمة : « أحسبتم أننا خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، . . . وفي قوله تعالى : « لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، قصرت صفة الألوهية على ضمير لفظ الجلالة قصرا حقيقيا تحقيقيا ، وفي إسناد الكرم إلى الضمير العائد إلى العرش مجاز عقلي ، حيث وصف العرش بوصف صاحبه ، لشرفه بما أودع الله فيه من أسرار ، والأصل : العرش الكريم ربه ، وقيل هو أسلوب كناية ، كما يقال : بيت كريم كناية عن كرم صاحبه ، وقيل هو على تشبيه العرش لنزول الرحمة منه والبركات ، بشخص كريم ، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو الكرم على سبيل الاستعارة المكنية ، والأول أرجح وأظهر . . . وفي قوله تعالى : « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، حذف مفعول « يدع ، وذلك على جعل « إلها ، حال لازمة من لفظ الجلالة ، والتقدير : ومن يدع مع تحقق وجود الله إلهًا شيئًا آخر ، وهذا الحذف ينبيء بحقارة ذلك المدعو مع الله ، ويشعر بأنه لا يستحق الذكر ، ولا ينبغي أن يكون ، فهو ليس بشيء ، قال تعالى : « أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُقْبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » (٢) أى : وما يقبَع الذين يعبدون غير الله شركاء له على الحقيقة ، تعالى الله عن ذلك ، إنه مجرد الظن بأنها آلهة تشفع لهم ، وتقربهم إلى الله زاني ،

(١) إفاده « أننا » للقصر بناء على رأى البعض ، والجمهور يرى أنها لا تفيد

للقصر . . . ارجع إلى كتابنا علم المعاني ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) سورة يونس آية ٦٦ .

وهم واهمون في هذا الظن، مخطئون في ذلك التقدير، « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » يكذبون حيث يقدرون تقديراً باطلاً... وفي الآية وجه آخر من الإعراب وهو جعل « إلهاً » مفعول « يدع » و « آخر » صفة ، كما مر بك ، وتنكير « إلهاً » على هذا الوجه ينبيء بتعدد وتنوع الآلهة التي دعيت من دون الله ، وقوله : « لا برهان له به » إما صفة لازمة لمفعول « يدع » وإما جملة اعتراضية ، وعلى كلا الوجهين ، فإن الغرض من الجملة هو التوكيد ، والمبالغة في الوعيد والزجر ؛ لأنه إذا كان هذا هو جزاء من عبد ما لا دليل له عليه ، فما بالك بمن عبد ما دل الدليل على خلافه ؟ ، والحساب في قوله : « فإنما حسابه عند ربه » كناية عن المجازاة ، وفي ذكر الرب ، وقصر الحساب بمعنى المجازاة عليه قصراً حقيقياً تحقيقياً ، ما يدل على شدة العقاب ، لحساب أولئك الكفرة الذين دعوا مع الله إلهاً آخر ، إنما هو عند ربهم الذي تكلمهم بالرعاية والتربية ، ، إنه ربهم وقد عبدوا غيره ، وحسابهم الآن مقصور عليه ، ولذا سيكون شديداً وعسيراً... وفي قوله عز وجل : « إنه لا يفلح الكافرون » ، وضع الضمير موضع الاسم الظاهر في أوله ، لأنه ضمير الشأن ، وذلك للإيضاح بعد الإبهام الذي يؤدي إلى تثبيت الحكم المذكور ، وترسيخه في الأذهان ، كما وضع الظاهر موضع الضمير في آخره ، إذ الأصل : لا يفلح هو ، وذلك تسجيلاً عليهم ، وإشعاراً بأنهم استحقوا عدم الفلاح بسبب هذا الكفر ، وقد فصلت تلك الجملة عما قبلها للاستئناف البياني ؛ لأنها بمثابة جواب لسؤال قد انبعث منها ، وكأن السامع عندما يسمع الجملة الأولى يسأل : وما نوع الحساب والجزاء الذي ينتظر أولئك الذين دعوا مع الله إلهاً آخر ، فيجيب : إنه لا يفلح الكافرون... ومن الدقائق اللطيفة ما تشعر به في افتتاح هذه السورة الكريمة ، وفي اختتامها ، فقد افتتحت بتحقيق فلاح المؤمنين ، واختتمت بما يشعر بالانتهاء وهو عدم فلاح الكافرين ، وهذا ما يسميه البلاغيون ببراعة الابتداء وبراعة الانتهاء... وفي قوله تعالى : « وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » حذف متعلق « اغفر وارحم » ليبدل على

العموم ، وأن طلب المغفرة والرحمة له صلى الله عليه وسلم ولأمته ، وقد مر بك السر البلاغي وراء إيثار كلمة « خير » بالتعريف دون كلمة « أرجح » ، في قوله : « وأنت خير الراحمين » ، وفي تخصيص هذا الدعاء بالذكر في ختام السورة الكريمة ، ما يدل على أهمية ما فيه ، وبينه المؤمن إلى ضرورة الحرص عليه ، والتضرع به إلى الله عز وجل ، ويشعر بخطر الشرك ، الذي بين عقابه في الآية السابقة ، فهو أكبر الكبائر ، إنه الذنب الذي لا يغفر : « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويفغر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يُشرك بالله فقد ضلّ ضلّلاً بعيداً » ، « ١ » ، فليكون الشرك لا يغفر ، عقب بطلب المغفرة والرحمة ليظل المؤمن في معزل عنه ، وبعناى عن أنواعه ألي كانت . . . اللهم جنبنا الشرك ، وأبعدنا عن أنواعه ، وارزقنا الإخلاص في العبادة والعمل ، واغفر لنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء . وأنت خير الراحمين . . .

معاني الآيات الكريمة : بعد أن بين الله عز وجل جزاء المؤمنين الذين

صبروا على أذى الكفار وسخروهم منهم ولستيزاتهم بهم في الدنيا فلم يهنوا بل ثبوا على الميقاتين ، وازدادوا إيماناً على إيمانهم ، فقاموا بالرضوان والنعم ، بعد أن أبرزت الآيات ذلك ، متجهة إلى الكفرة ، فسالهم الله عز وجل : ألم لستم في الأرض عدد سنين ؟ ويقر الكفرة بقصر ما بشوا : لبتنا يوماً أو بعض يوم ، هذا مبلغ علمنا ، فسال للعادين من الحفظة الكرام ، لو من يقدر أن يلقى إليه فكره ، ويستجمع رأيه ، أما نحن فقد همتا العذاب ، ولا نعرف من عدد تلك السنين إلا أن نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم ، ويصدقهم المولى عز وجل في تقاليم لسنين لبتهم : « إن لستم إلا قليلاً » ، فهلا اعتستم ذلك

الزمن القليل ، وأحسنت العمل ، ، ودخلتم في زمرة المؤمنين لتفوزوا اليوم بما فازوا ؟ أم حسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ؟ كلا ، إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق لحركة بالغة :

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، ^(١) لم يخلقهم عبثا ، ولم يتركهم

سدى ، « أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ، ^(٢) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

لا إله إلا هو سبحانه ، رب العرش الكريم ، ورب الخلق أجمعين ، هو الملك

الخطي ، لا إله غيره ، ومن أشرك به ، ودعا غيره ، وعبد معبودات ما أنزل الله

بها من سلطان ، فقد خسر خسرا مبينا ، وسيحاسب حسابا عسيرا :

« إِنْ أَلِهَ إِلَّا يَفْقِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَفْقِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لَمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ، ^(٣) ولما كان حساب المشرك عسيرا :

« إنما حسابه عند ربه ، ولن يفلح أبدا ، لأنه لا يفلح الكافرون ، وما أطف

ما افتتحت به السورة الكريمة ، وأدق ما اختتمت به ، فقد افتتحت بتحقيق

فلاح المؤمنين ، ثم اختتمت بتحقيق خسران الكفرة ؛ والإخبار بعدم فلاحهم ، ولما

كان الشرك بالله أكبر الكبائر ، وأخبرنا الله جل جلاله أنه لا يفتقر أن يشرك به ،

فقد أعقب ذلك الوعيد بهذا الإرشاد ، معللنا فيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو بالمغفرة

والرحمة : «وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ، وفي الصحيحين أن أبا بكر

رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به

في صلاتي فقال له - عليه الصلاة والسلام - : « قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما

كثيرا ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمي

إنك أنت الغفور الرحيم ، ... اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا في أمرنا ، إنك

أنت الغفور الرحيم ، وارحمنا يارب برحمتك التي وسعت كل شيء ، يا خير الراحمين .



(٢) سورة القيامة آية ٣٦ .

(١) سورة القدر آية ٥٦

(٣) سورة النساء آية ٤٨ .

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» (١) فالأصل الذي جاء به الأنبياء واحد ، وهو توحيد الله عز وجل وترك عبادة الأوثان ، « مَا آتَاكُمْ مِنْ إِلَهٍ خَيْرُهُ » ... الأصل هو الأمر بعبادة الإله الواحد الحق ، وإن اختلفت الفروع المؤدية إلى هذا الأصل في كل رسالة ... ثم يستطرد السياق إلى اختلاف الناس بعد الرسل في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد « فَتَقَطَّعُوا أَمْوَالَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَيَرْحُونَ » ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورفضهم لدعوته ، مستنكرا هذا الموقف الذي ليس له مبرر ، وتعرض الآيات إلى جملة من الدلائل والبراهين ، دلائل الإيمان ، وبراهين التوحيد ، « وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ لَكُمْ السَّمْعَ .. وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ .. وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. » ويعرض الماعدون عن تلك الدلائل ، كما عرضوا عن غيرها ، متمسكين بقالة الآباء ، فتساءل الآيات في حوار هادئ : « قُلْ إِنِّي الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ؟ .. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ .. قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجْرِيهِمْ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ؟ .. » ومن العجيب أنهم يسلمون بهذه التساؤلات لله تبارك وتعالى : « سَيَقُولُونَ اللَّهُ » ثم يكفرون به ، وينكرون البعث ... ويتوجبه السياق بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يدعهم وشركهم وأن يدفع السيئة بالتي هي أحسن ، وأن يستعذ بالله من همزات الشياطين ، فهؤلاء الكفرة سيطلون على كفرهم وعنادهم ، حتى يفاجئهم الموت ، ومعدنذ يندمون ولات حين ندم ، سينخلدون في جهنم ، وسيفوز المؤمنون اليوم ويحجزون الجزاء الأولي ... وتختتم السورة الكريمة بتزيه الله عز عز وجل : « فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ » وبني الفلاح عن الكافرين في مقابل

تقرير الفلاح في أول السورة للمؤمنين : «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ الْكَافِرُونَ » ثم بالتوجيه إلى الله عز وجل لطلب الرحمة والعتق من : « وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » ..

فجاء السورة - كما نرى - هو جو التقرير والبيان ، ولجلد الملحد والحوار الهادف ، وإثارة الفكر والوجدان ، للوصول إلى تلك الحقيقة ، حقيقة الإيمان بالله وحده ، ففي المطلع إبراز لصفات المؤمنين يعقبه عرض الدلائل ، دلائل الإيمان في الأنفس ، وفي الآفاق ، حوار بين رسل الله والكفرة ، لينتصر الحق في كل قصة ، وفي أوسطها إبراز آخر لجملة من صفات المؤمنين : « إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ .. » الآيات .. وحث على الفطر والتأمل : « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ .. » الآيات ..

ويلتقي مطلع السورة الكريمة وختامها في تقرير الفلاح للمؤمنين والخسيران للكافرين : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » .. « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » وفي تقرير الخشوع في الصلاة في مطلعها : « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » والتوجيه إلى الله تعالى بالخشوع في ختامها : « وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » وبهذا يلتقى المطلع والختام في تناسق تام وبراعة وإعجاز ..

ومن الظواهر الأسلوبية الواضحة ، التي نجدتها تتكرر في السورة الكريمة : أسلوب الاستفهام ، الذي ينبه ويحث ، ويوقظ ويحرك ، ويدعو إلى التأمل والتدبر والنظر « أفلا تتقون .. أفلا تعقلون .. أيعدكم أنكم إذا تمم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون .. أنؤمن لبشرين مثلنا .. يحسبون أننا ندعهم به

من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات . . . أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت
 آباءهم الأولين . . . أم لم يعرفوا رسولهم . . . أم يقولون به جنة . . . أم تسألهم
 خرجا . . . إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون . . . قل لمن الأرض ومن
 فيها . . . قل من رب السموات السبع . . . قل من بيده ملكوت كل شيء . . . فأنى
 تسحرون . . . ألم تكن آياتى تتلى عليكم . . . كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . . .
 أحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . . . فتلذذوا بالاستغفامات
 ولمن أريد بها معان بلاغية ، كالإنكار والتعجب والتقرير ، فإن محض المعنى هو
 التنبيه والإيقاظ وتحريك الفكر وإثارة الذهن ، حتى يرجع المخاطب إلى
 نفسه ، فينجل ويرتدع ويعبى بالجواب ، فيكف عن العناد والمكابرة (١) .

ومنها أسلوب القصر الذى يحقق المبالغة ، ويلقى المعنى أمام المخاطب
 مؤكدا جليا حتى يرى فيه رأيه : « ما لكم من إله غيره . . . ما هذا إلا بشر
 مثلكم . . . إن هو إلا رجل به جنة . . . إن هى إلا حياتنا الدنيا . . . إن هو
 إلا رجل افترى على الله كذبا . . . إن هذا إلا أساطير الأولين . . . إن لبثتم
 إلا قليلا . . . فإنا حسبنا عند ربنا . . . أولئك هم الوارثون . . . فأولئك هم
 المفلحون . . . وقومهما لنا عابدون . . . فكنتم بها تكذبون . . . وكنتم منهم
 تضحكون . . . أنهم هم الفائزون . . . إليه تحشرون . . . » ولا يخفى عليك تنوع
 طرق القصر فى الآيات ، وما يكمن وراءه من لطائف وأسرار ، فعندما أريد
 التعميم وإبراز مزية المخاطبين ومكاثمتهم جاء القصر بتعريف الطرفين وتوسط
 ضمير الفصل : « أولئك هم الوارثون ، . . . ولما كان الحوار عنيفا والجدل
 حادا والنقاش محتدا شديدا ، جاء القصر بالنفي والاستثناء « ما لكم من إله
 غيره . . . ما هذا إلا بشر . . . إن هو إلا رجل به جنة . . . » فأنت تعلم أن طريق
 « النفي والاستثناء » . . . يستعمل فى المعانى القوية ، والنبرات الحادة والأمور
 الغريبة المنكرة التى يجعلها المخاطب ، أو التى تنزل تلك المنزلة . . . فلما هدا

الأسلوب، وانتهى الجدل، في ختام السورة الكريمة، بعد أن صرح السياق بندم الكفرة وتحسّرهم يوم القيامة، جاء القصر بإنما «فإنما حسابه عند ربه» فهي أداة هادئة يلائمها الحوار الهادئ، والأسلوب الواضح المعلوم، الخالي من الإنكار، أو المنزل تلك المنزلة، ولذا لم تستخدم إنما في وسط السورة، عندما كان الحوار عنيفا والجدال حادا، واستعملت مرة واحدة، وفي ختام السورة، عندما هدأ الحوار، وانتهى الجدل، وندم الكفرة، وبدأ تحسّرهم..

ومنها أسلوب النداء والأمر والنهي : «يا قوم اعبدوا الله.. ترابصوا به.. رب انصرفي.. أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا.. فاسلك فيها.. ولا تخاطبني في الذين ظلموا.. وقل رب أنزلي منزلا مباركا.. يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا.. وأنا ربكم فاتقون.. فذرهم في غمرتهم.. لا تجأروا اليوم.. رب فلا تجعلني في القوم الظالمين.. ادفع بالتي هي أحسن السيئة.. قال رب ارجعون.. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون.. قال اخسأوا فيها ولا تكلمون.. فاسأل العادين.. وقل رب اغفر وارحم.. وأسلوب الأمر أو النهي في تلك الآيات الكريمة، تراه حينما على حقيقته، وحينما أريد به معنى بلاغى، كالحث على الفعل، والدعاء، والوعيد والتهديد، والسخرية والتهكم، والإهانة والإذلال، وقد تقدم في معظمها النداء على الأمر أو النهي، والنداء لإيقاظ وتنبيه، فعندما يتلوه الأمر أو النهي يقع في النفس موقعه، ويحقق ماترمى إليه الآيات الكريمة، حيث جاء أسلوب الأمر أو النهي والنفوس مهياة يقظة، قد انتبهت للنداء..

ومنها تكرار اسم الإشارة الموضوع للبعيد : «أولئك هم الوارثون.. أولئك يسارعون في الخيرات.. فأولئك هم المفلحون.. فأولئك الذين خسروا أنفسهم.. فمن ابتغى وراء ذلك.. ثم إنكم بعد ذلك.. إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين.. ولهم أعمال من دون ذلك.. والموضوع للقریب : «ما هذا إلا بشر مثلكم.. إن هذه أمتكم أمة واحدة.. بل هم في غمرة من هذا.. لقد

وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين .. ولا يخفى عليك ما وراء التعبير بتلك الأسماء من تصوير ونجس يد للبعثي ، ومن مزايا بلاغية قد وقفت عليها في مواظنها ..

ومنها تكرا الاسم الموصل في أول للسورة : « الذين هم في صلاتهم .. الذين هم عن اللغو .. الآيات ، وفي أوسطها : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه .. ولا تخاطبني في الذين ظلموا .. وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا .. إن الذين هم من خشية ربهم .. والذين هم .. الآيات .. وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة .. وهو الذي أنشأ لكم السمع .. وهو الذي ذرأكم وهو الذي يحيي ويميت .. ادفع بالتي هي أحسن السيئة .. » وقدكرر الاسم الموصل في تلك المواطن لإبراز المعاني التي تحملها جملة الصلة فهي تكشف عن صفات أولئك المؤمنين التي استحقوا بها الفوز والفلاح ، وتجلى صفات هؤلاء المعاندين من كفر وظلم وتكذيب وانتفاء الإيمان ، فقد استحقوا من أجلها العقاب والتعذيب ، وتظهر قدرة الله عز وجل أمام أولئك المعاندين ، لعلمهم يتألمون ويتدبرون ، فيقلعون عما هم فيه من كفر وضلال ، وعناد ومكابرة ، ويقبلون على تحقيق الإيمان ، وإعلان الطاعة لله ورسوله ..

هذا والسورة الكريمة مليئة بالصور البيانية ، والمزايا البلاغية ، التي وقفت عليها في مواظنها ، فقد إليها ليتبين لك كيف أبرزت تلك الصور : المقاصد والأهداف السامية ، التي تقصد إليها الآيات الكريمة ، وترمى إلى تحقيقها ..

وبما هو جدير بالتسجيل والملاحظة أنك ترى الأسلوب يتلامم تلاؤماتاما مع ما تهدف إليه السورة ، حيث يتنوع بين الخبر والإنشاء ، فتجده خبريا محضا في الآيات التي تصور الحقائق ، وتبرز الصفات ، وتظهر الدلائل ، وخبريا مخرجا بالإنشاء في الآيات التي تصور الحوار والمجادلة ، ففي مطلع السورة

تقرير لفلاح المؤمنين، وإبراز لصفاتهم، وإظهار لدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، وهنا نجد الأسلوب خبرياً محضاً، يقرر هذه الحقائق، ويثبت تلك الدلائل، ويجعل صفات المؤمنين، وتستطيع أن تقرأ هذا من أول السورة الكريمة، وحتى الآية ٣٦.. وعندما انتقل السياق إلى قصص الأنبياء، ظهر الأسلوب الإنشائي الذي يلائم الحوار والجدال بين الرسل عليهم الصلاة والسلام وبين أقوامهم.. يا قوم اعبدوا الله.. أفلا تتقون.. فتربصوا به حتى حين.. ويعود الأسلوب خبرياً محضاً في وسط السورة عندما أخذ السياق في إبراز جملة أخرى من صفات أولئك المؤمنين: «لن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم.. الآيات».

وإقرأ ما تنطق به الآيات الكريمة عن البعث في أول السورة: «ثم إنكم يوم القيامة تبعثون»، وما تنطق به على لسان الكفرة في وسطها: «إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً؟ أئنا لمبعوثون؟»، نجد الأول إخباراً عن وقوع البعث بعد الموت، والثاني إنكاراً لوقوعه، ومرد ذلك إلى أن الأسلوب في مطلع السورة، يقرر ويثبت تلك الحقائق الثابتة، التي أشرنا إليها، فالملائم هو الإخبار، وهنا على لسان الكفرة الأسلوب أسلوب حوار ونقاش وجدال، وهذا يلائمه التساؤل لا الإخبار...

ويلتق - كما أوضحت - مطلع السورة وختمها في تقرير أمرين:

الأول: فلاح المؤمنين في المطلع، وخسران الكفرة في الختام «قد أفلح المؤمنون.. إنه لا يفلح الكافرون»، وبين المطلع والختام، عرض لصفات المؤمنين، وإبراز لدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، وحوار بين رسل الله عليهم الصلاة والسلام وبين أقوامهم حول هذه القضية، قضية الإيمان والتوحيد، وتجليه لقدرة الله عز وجل، وتقرير الكفرة أو إقرارهم بأن الأمر كله لله، وإظهار لما أعدده الله من الجزاء الأوفى للمؤمنين، ومن عقاب شديد للكفرة المعاندين، يوم لا تنفع أنساب، ولا يغني مال ولا بنون إلا من أتى الله

بقلب سليم ، ثم إعلان أن الله تبارك وتعالى، لم يخلق الخلق عبثاً ، بل خلقهم لحكمة أرادها : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، (١) وكان ختام السورة الكريمة بوعتيقُ خسران السكفرة، بشرى إلى أن من لم يتأمل ويتدبر فينتفع بما قرر وأبرز ووضح، فقد وجب الآن أن يحقق خسرانه ، وأن يقرر بواره وعدم فلاحه ..

الثاني : تقرير الخشوع في الصلاة في المطلع ، والتوجيه إلى الله تعالى بالدعاء في خشوع في الختام : الذين هم في صلاتهم خاشعون.. وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ، وهذا يومىء إلى ضرورة الامتثال والخشوع التام لأوامر الله جل وعلا ، وينبئ بأن من تأمل وتدبر ماجلته السورة الكريمة ، وجب عليه أن يخضع لله ، وأن تقشعر جلوده ، وتلين جوارحه ، ويخشع قلبه ، فيبتل إلى الله تعالى في ضراعة : رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ، .. نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا فهما صحيحا لكتابه الكريم ، وتدبرا واعيا ، وتأملا دقيقا ، وعملا يرضاه ، وأن ينجبنا الزلل ، ويلهمنا الرشده والصواب والتوفيق والسداد ، إنه سميع قريب ، وهو نعم المولى ونعم النصير.. وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أهم المراجع

- ١ - الإتيقان في علوم القرآن . للسيوطي .
- ٢ - إعجاز القرآن . للباقلاني .
- ٣ - الأمام للإمام الشافعي .
- ٤ - أمالي المرتضى ، للشريف المرتضى .
- ٥ - البحر المحيط . لأبي حيان .
- ٦ - البرهان في علوم القرآن ، للزركشي .
- ٧ - التصوير الفني في القرآن ، لسيد قطب .
- ٨ - تفسير أبي السعود .
- ٩ - تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير .
- ١٠ - تفسير جزء تبارك ، للشيخ عبد القادر المغربي .
- ١١ - التفسير الكبير ، للإمام الفخر الرازي .
- ١٢ - تفسير الكشاف ، للزمخشري .
- ١٣ - تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشريف الرضي .
- ١٤ - تنزيه القرآن عن المطاعن ، للقاضي عبد الجبار .
- ١٥ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني والخطابي والجرجاني .
- ١٦ - جامع البيان عن تأويل القرآن ، للطبري .
- ١٧ - الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي .
- ١٨ - الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن نايقا .
- ١٩ - روح المعاني ، للألوسي .
- ٢٠ - السيرة النبوية ، لابن هشام .
- ٢١ - صحيح البخاري .
- ٢٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني .

- ٢٣ - فتح القدير ، للشوكاني .
- ٢٤ - فقه السنة ، للسيد سابق .
- ٢٥ - الفوائد المشوق لعلوم القرآن وعلم البيان ، لابن القيم .
- ٢٦ - في ظلال القرآن ، لسيد قطب .
- ٢٧ - القاموس المحيط ، للفيروزا بادي .
- ٢٨ - لسان العرب ، لابن منظور .
- ٢٩ - متشابه القرآن ، للقاضي عبد الجبار .
- ٣٠ - المجازات النبوية ، للشريف الرضي .
- ٣١ - مجاز القرآن ، لأبي عبيدة .
- ٣٢ - مشاهد القيامة في القرآن ، لسيد قطب .
- ٣٣ - معاني القرآن ، للفراء .
- ٣٤ - من أسرار التعبير القرآني ، لمحمد أبو موسى .
- ٣٥ - النبأ العظيم ، لمحمد عبدالله دراز .

استدراكات

صوابه	الخطأ	سطر	الصفحة
بيده	بيده	١	٤
التأويل	الأويل	١٩	٤
الأوصاف	الأوصا	٧	٣٢
أنشانا	أنشانا	١٠	٣١
وتميز	وتميز	١٩	٣١
إذني	إذني	٢	٣٢
طباقاً	يباقاً	١٠	٤٠
وقبل	وفيل	١٣	٤٣
كل	كل	٩	٥١
نبعث	نبعث	٥	٦٢
ربوة	ربوة	٨	٧٠
تلتقم	قلتم	٩	٧٣
المعين	المالين	٨	٧٦
بتنمية	بتنمية	٧	٧٧
قبلك	قبلك	٢	٩٧
عنهم	عنهم	١٢	١١٠
بك	بك	٥	١١٥
تربك	تربك	٣	١١٥
وقبل	وقبل	١٠	١١٩
تكذبون	تكذبون	١٣	١٢٩
أنفسهم	أنفسهم	١٢	١٤٤
تغلي	تغلي	٢٣	١٤٤

صوابه	الخطأ	سطر	الصفحة
مردّ	مردّ	٢٢	١٤٨
فوزا	فرزا	١٦	١٥٠
يَدْعُ	يَدْعُ	٤	١٥١
آية	آية	١	١٥٤
إفاده	إفاده	١	١٥٩
وبراعة	وبراعة	٢٤	١٦٠
افتتاح	افتتاح	٢١	١٦٠

رقم الإيداع ٥٨٩٣ / ١٩٨٨